الفصل الثاني

صورة بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية في سنة ٥٨٣ هـ

صورة الفتح القدسي

عندما فتح السلطان صلاح الدين حلب في سنة ٥٧٩ هـ، كتب إليه الفقيه مجد الدين بن جهبل الحلبي الشافعي ورقة يبشره بفتح البيت المقدس على يديه، ويعين فيه الزمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى الهكاري، ولكنه لم يتجاسر على عرضها على السلطان، وأخبر القاضي محيي الدين بن زكي الدين بذلك. وقد أنشأ القاضي محيي الدين قصيدة يمدح بها السلطان، عندما فتح حلب في صفر من السنة الآنفة الذكر، يقول فيها مبشراً بالفتح القدسي[1]:

وفتحكُم حلباً بالسيف في صفر قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

فعجب صلاح الدين من مقالته، ولما تم فتح بيت المقدس، في رجب من سنة ٥٨٣ هـ أكرم صلاح الدين مجد الدين بن جهبل بأن كان أول من درَّس درساً في الفقه، في الصخرة المشرفة، كما أكرم القاضي محيي الدين بأن كان أول من خطب في المسجد الأقصى بعد تحريره من الاحتلال الصليبي[2].

---

(١) انظر: البرق الشامي ٥/١٠٩، سنا البرق الشامي/ ٢٢٩، الروضتين ٢/٤٥، ٤٦، مفرج الكروب ٢/١٤٥، مضمار الحقائق/ ١٤٣، الكامل ١١/٤٩٧، مرآة الزمان ٨/٣٧١، ١٤/١٤٣، ١٥٣، زبدة الحلب ٣/٧٢. المختصر ٣/٦٦، تتمة المختصر ٢/١٤١، النجوم الزاهرة ٦/٩٥، البداية والنهاية ١٢/٣١٤، تاريخ الإسلام/ ١٥٢، روضة المناظر/ ٩٠، الاعلام والتبيين/ ٨٤، مرآة الجنان ٣/٣٧٥، شفاء القلوب/ ١٠٦، ١٣٠، نزهة الناظر/ ١٠٤، الأنس الجليل ١/٣١٧، ٣٣١، لطائف أخبار الدول/ ١٧٢، رحلة الشتاء والصيف/ ١٩٩، اعلام النبلاء/ ١٣٨، ١٣٩.

(٢) انظر: سنا البرق الشامي/ ٢٢٦، مفرج الكروب ٢/١٤٥، الروضتين ٢/٤٦، المختصر ٣/٦٦، تتمة المختصر ٢/١٤١، الكامل ١١/٤٩٧، مرآة الزمان ١/٣٧٦، تاريخ الخلفاء/ ٤١٨، مراة الجنان ٣/٣٧٥، شفاء القلوب/ ١٣٠، الدارس ١/ ٢٣٠ ـ ٢٣٢، الانس الجليل ١/٣١٧، ٣٣١، البداية والنهاية ١٢/٣٢٦، اعلام النبلاء ٢/١٣٨، ١٣٩.

يقول العماد الأصفهاني: «ويشبه هذا أنني في سنة ٥٧٢ هـ، طلبت من السلطان جارية من سبي الأسطول المنصور» في أبيات يتنبأ فيها بفتح القدس، ويربط بين طلبه من السلطان، وبين ما يأمل به من كرام السبايا عند فتح القدس، يقول:

يُؤَمِّلُ المملوكُ مملوكةً تُبدِّل الوحشة بالأنس
لا زلتَ وهاباً لما حازه سيفك من حورٍ ومن لعس
وإنني آمل من بعدها كرائم السَّبي من القدس

«قال: فجاء الأمر على وفق الأمل، ووهب لي تلك السنة ما سألت. وأعطاني عام فتح القدس ما أملت»[1].

ومما تقدم يتبين لنا كيف تردد صدى التنبؤ بالفتح القدسي في الأدب العربي آنذاك. ومن ذلك أيضاً ما يذكره ابن أبي أصيبعة، في ترجمة الطبيب أبي سليمان داود بن المنى بن أبي فانة[2] أنه قد «ظهر له في أحكام النجوم أن الملك الناصر يفتح البيت المقدس في اليوم الفلاني، من الشهر الفلاني، من السنة الفلانية، وأنه يدخل إليها من باب الرحمة». وقد أرسل الطبيب الآنف الذكر ابنه أباالخير[3] رسولاً إلى الملك الناصر «يبشره بملك بيت المقدس، في الوقت المذكور»، فوصل في غرة سنة ٥٨٠ هـ، وأبلغ الرسالة. وقد «أنعم عليه السلطان بجائزة سنية، وأعطاه علماً أصفر. . وقال له: متى يسر الله ما ذكرت، اجعلوا هذا العلم الأصفر فوق داركم، فالحارة التي أنتم فيها تسلم جميعها في خفارة داركم»[4].

ومثل ذلك ما يرويه أبوشامة المقدسي أنه، في سنة ٥٧٣ هـ، قرأ بخط شيخه «أبي الفضائل بن رشيق» بمصر، عقيب موته في السنة المذكورة، «قال:

---

(١) انظر: سنا البرق الشامي/ ٢٢٦، الروضتين ٢/٤٦.

(٢) انظر: عيون الأنباء/ ٥٨٧ ـ ٥٨٩.

(٣) انظر: نفسه/ ٥٥٨، ٥٩٠.

(٤) انظر: نفسه/ ٥٨٨.

رأى إنسان كأن شخصاً ذا جهامة واقفاً على حائط بجامع دمشق»، وهو يقول:

ملك الصَّياصي والنَّـواصي ناصـرٌ للدّين بعـدَ إياسـه أن يُنـصـرا
وسيفتـحُ البيتُ المقـدَّس بعـدمـا يطوى الـطراز له ويقتـل قيصـرا

يقول أبوشامة: «وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين»، ثم يضيف: «وهكذا كان الأمر على ما سبق بيانه، فتح هذا الطراز أولاً، ثم فتح البيت المقدس، وكنّى بقيصر عن الإبرنس الذي قتله بيده»[1].

وبعـد هذا نتساءل عن التنجيم وما يقوله المنجمون، ومدى الاعتقاد في ذلك، وموقف صلاح الدين منه، ولعل ما يذكره أبوشامة المقدسي يجيب عن هذا التساؤل، يقول: «وهذا نجابة وافقت إصابة، إن صح أنه قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه»، ويقول: «ليس هذا من قبيل علم الحرف، ولا من باب الكرامات، لأنها لا تُنال بحساب»[2].

★★★

وفي السنة التي سبقت سنة الفتح، أي في سنة ٥٨٢ هـ، استمر الشعر يدعو إلى تحرير مدينة بيت المقدس، ويحث على الجهاد لتحريرها وتحرير غيرها من ديار الإسلام المحتلة.

أنشـأ العماد الأصفهاني، في السنة المذكورة، قصيدة يمدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر، وأنشده إياها في الثالث من شهر رمضان، في دمشق. ويحث فيهـا على تحـرير بيت المقـدس، ويشيد بتقي الدين في جهاده ضد الفرنج، ويبين أن الأيوبيين هم الذين سيحررون القدس، كما يبدو في قوله[3]:

وبَـيَّضـتَ وجـهَ الـدّين يومَ لقيتهم وأبيضكم من أسود القصر أشوسُ[4]
وكـم كُفي الإسـلام سوءاً بملككم كفيتمْ على رغم المعـادين كّل سو

(١) انظر: الروضتين ٢/١٠٤.
(٢) الدارس ١/٢٣٢.
(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٨، ٢٣٩، كتاب الروضتين ٢/٧٢.
(٤) أشوس: أشجع.

ولا يفتحُ البيتَ المقدَّس غيركم وبيتكم من كلِّ عاب مُقدَّسُ
وما عمرٌ إلا شبيه سَمَيِّهِ شديدُ الأعداء ثَبْتٌ عَمرُسُ[1]

ويحث الحكيم عبدالمنعم الجلياني على تحقيق تلك الغاية، من خلال قصيدة بعث بها إلى صلاح الدين، في غرة هذه السنة ـ ٥٨٢ هـ ـ، ويركز فيها على الدعوة إلى الجهاد، ورفع شأن الإسلام، واستئصال الشرك وأهله، ويعظّم فتح القدس، وتحرير الأقصى، ويصور ذلك الفتح المرتقب بفتح مكة، كما يصور القدس، والأقصى، والصخرة منتظرة صلاح الدين، يقول[2]:

فيا مَلِكا لم يبقَ للدّين غيره وَهَتْ عُمُدُ الإسلام فاشددْ لها دعما
إذا صفرتْ من آل الاصفر ساحة الـ ـمقدّس ضاهت فتحَ أمّ القُرى قدما
فذا المسجدُ الأقصى وهمتك العُلى وعَزْمَتُك القُصوى ورَمْيتُك الصمى
وليس كفتح القُدس منية قادرٍ وما أن تلقاها يوسف جزما

ومثل ذلك قوله في قصيدة أُخرى أنشأها في السنة ذاتها، وكان قد حضر بين يدي السلطان، وأنشده قصيدته. وفيها يصور القدس وما آلت إليه في ظل الاحتلال الصليبي، ويدعو إلى تحريرها، كما يصور صلاح الدين وأبناءه وقد تدموا من مصر والشام لتحقيق أمنية المسلمين، ويرى أن على العدو أن يرحل عن أرض فلسطين، كما يبدو في قوله[3]:

الله أكبر أرضُ القُدسِ قد صفرتْ من آل الاصفر إذ حين به حانوا
أسباطُ يوسف من مصر أتوا ولهم من غير تيه بها سلوى وأمنانُ[4]
لهم فلسطين إن يخرج عداتهم عنها وإلا عَدَتْ بيضٌ وخرصانُ
حتى بنيتَ رِتاجَ القُدس منفرجاً ويصعد الصخرة الغراء عثمانُ[5]

---

(١) عمرُس: قوي شديد.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١١٦.

(٣) نفسه ٢/١١٦

(٤) أسباط يوسف: يقصد بهم هنا أولاد السلطان صلاح الدين.

(٥) الرتاج: الباب المغلق، وعليه باب صغير.

والمقصود بـ «عثمان»: ابن السلطان صلاح الدين العزيز عثمان.

واستقبلَ الناصرُ المحرابَ يعبدُ مَنْ قد تمَّ من وعده فتحٌ وإمكانُ
ومن أحقُّ بُملكِ الأرضِ من مَلكٍ كأنه مَلِكٌ في الخلْق حَنّانُ

ويصور ابن الساعاتي القدس مستبشرة، بعد النصر في طبرية وحطين في سنة ٥٨٣ هـ، ويشيد بصلاح الدين، ويدعوه إلى الاستمرار في الجهاد، ويصور المقدسات الإسلامية قد رضيت عن صلاح الدين، كما يبدو في قوله(١):

قضيتَ فريضة الإسلام منها وصَدَّقتَ الأماني والظنونا
تهزُّ معاطف القدس ابتهاجاً وتُرضي عنك مكة والحجونا
فلو أنّ الجهادَ يطيقُ نطقاً لنادتك ادخلوها آمنينا
فألممْ بالسواحل فهي صورٌ إليك وألحق الهامَ المتونا
فقلبُ القُدس مسرورٌ ولولا سُطاك لكان مكتئباً حزينا

ويُذكر أن شاباً مسلماً كان مأسوراً في بيت المقدس، وهو من أهل دمشق، كتب إلى صلاح الدين أبياتاً يدعوه فيها إلى تحرير القدس، يقول(٢):

جاءتْ إليك ظلامةٌ تسعى من البيت المُقدَّسْ
كلُّ المساجد طُهِّرتْ وأنا على شرفي مُنَّجس

تقدم السلطان صلاح الدين يفتح البلاد بعد الانتصار في حطين، وقد استطاع فتحها في فترة قصيرة، ولم تبق إلا القدس، وصور، وطرابلس، بأيدي العدو الصليبي المحتل.

ولم يهاجم صلاح الدين بيت المقدس إلا بعد أن استولى على عسقلان وبيت جبريل، وبعد أن طهر وادي الأردن من العدو المحتل(٣).

---

(١) انظر: ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٦، مفرج الكروب ٢/١٩٨، الروضتين ٢/٨٤، مرآة الزمان ١٤/١٥٢، النجوم الزاهرة ٦/٣٤، شفاء القلوب/ ١٢٦.

(٢) زبدة كشف الممالك/ ٢٠، إتحاف الأخصا بالمنهاجي السيوطي (خ)/٢٧٢(ط)١/٢٧٤، الأنس الجليل ١/٣١٨ ـ ٣١٩، أخبار الدول/ ٤٣٠.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ٨٠، الروضتين ٢/٩٣، الفتح القدسي/ ١١٢، الكامل ١١/٥٤٥ ـ ٥٤٦، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي/ ١٤٢ ـ ١٤٣.

وفي شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ، أخذت جيوش المسلمين بقيادة صلاح الدين تقترب من بيت المقدس، وكانت قادمة من الخليل، وعسكر الجيش الإسلامي بالجانب الغربي، ثم رأى السلطان صلاح الدين وقادته أن المكان غير مناسب عسكرياً، فأمر بالانتقال من الجانب الغربي إلى الجانب الشمالي. ويُذكر أن الجيش كان قد نزل بالجانب الغربي في يوم الأحد، الخامس عشر من شهر رجب، وانتقل إلى الجانب الشمالي، في يوم الجمعة، العشرين منه(١).

يذكر ابن شداد أن صلاح الدين سار معتمداً على الله، ومفوضاً أمره إليه، «منتهزاً فرصة فتح باب الحبر الذي حث على انتهازه، إذا فتح، بقوله عليه السلام: «من فتح له باب خير فلينتهزه، فإنه لا يعلم متى يغلق دونه»(٢).

ونصب الجيش الإسلامي المنجنيقات، وضايق بيت المقدس «بالزحف، والقتال، وكثرة الرماة حتى أحد النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شماليه»، فلما رأى العدو المحتل ما نزل به، و«ظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل». وعلموا أن مصيرهم سيكون كمصير بني جلدتهم في البلدان الإسلامية الأخرى، عمدوا إلى طلب الأمان، فأبى صلاح الدين أولاً، ثم هدد العدو بهدم قبة الصخرة المشرفة، وقتل أسرى المسلمين، وكانوا قرابة خمسة آلاف، فعقد صلاح الدين مجلساً للشورى، ووافق المسلمون على إعطاء الأمان للفرنج، ثم تسلموا بيت المقدس، يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب(٣).

★ ★ ★

---

(١) انظر: النوادر السلطانية/ ٨١، الفتح القدسي/ ١٢٤، ١٢٥، الروضتين ٢/٩٢، ٩٤، البداية والنهاية ١٢/٣٢٣، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي/ ١٤٣، ١٤٤.

(٢) النوادر السلطانية/ ٨١، كتاب الروضتين ٢/٩٢.

(٣) النوادر السلطانية/ ٨٢، الفتح القدسي/ ١٢٨، ١٣٠، كتاب الروضتين ٢/٩٢، ٩٤، ٩٥، ٩٨، البداية والنهاية ١٢/٣٢٣.

تحدث كثير من الأدباء المسلمين عن الفتح القدسي، وخصوه بعنايتهم، وعبروا إزاءه عن أحاسيسهم ومشاعرهم، وأحاسيس المسلمين ومشاعرهم، فقد عنى به العماد الأصفهاني في كتابه «الفيح القسي في الفتح القدسي». وتحدث عنه في كتابه «البرق الشامي». وتحدث عنه ابن شداد في كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، وأبوشامة المقدسي في كتابه «الروضتين في أخبار الدولتين»، والقاضي الفاضل في رسائله في: «من ترسل القاضي الفاضل»، و«الفاضل من كلام القاضي الفاضل»، و«الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم»، وغيرها. كما تحدث عنه العماد الأصفهاني في رسائله ومبشراته القدسية، وابن الأثير في عدد من رسائله، وابن زكي الدين في خطبته في المسجد الأقصى المبارك، بعد تحريره.

لقد نظر الأدباء إلى هذا الفتح نظرة تعظيم، ويكفي أن نعلم أن العماد الأصفهاني عده هجرة ثانية للتأريخ، بها، فقد بدأ العماد كتابه «الفتح القدسي» بسنة الفتح، وذكر أنه بدأ بالتاريخ به لاستقبال سنة الفتح، وهي سنة ٥٨٣ هـ. ويعلل العماد ما يذهب إليه بأن معنى التواريخ «إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى، وإما مستفتحة بمعقب من الدول الأخرى، فلا أمة من الأمم ذوات الملل، وذوات الدول، إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه، ويعولون عليه، ثم ينقله خلفها عن سلفها، وحاضرها عن غابرها، تقيد به شوارد الأيام، وتنصب به معالم الأعلام»[1].

أرخ المسلمون بالهجرة النبوية، ورأى العماد الأصفهاني في الفتح القدسي هجرة ثانية أرخ بها، وهي «هجرة الإسلام إلى بيت المقدس، وقائمها السلطان صلاح الدين»، ورأى أنه «على عاتقها يحسن أن يُبنى التاريخ وينسق، وهي وإن كانت هجرة الإسلام إلى القدس ثانية، فقد كان انثنى عن وطنه منها لما ثنته يد الكفر ثانية». ويعلل العماد صنيعه هذا بأن الشام قد فتح من قبل، وكان الإسلام قوياً، وأما آنذاك، أي في عهد العماد، فقد فتح «والإسلام قد

(١) انظر: الفتح القدسي/ ٤٣ - ٤٤.

وهن منه العظم، واشتعل الرأس شيبا. . وقد عاد غريباً كما بدأ غريبا»[1]. ويصوره، وكأن الدنيا الحامل وصلت إلى تمام شهرها، وجاءت بواحدها الذي تضاف إليه الأعداد، ولذا فهو الهجرة الثانية التي يؤرخ بها في نظره[2]. إن ما يذهب إليه العماد الأصفهاني في هذا المجال، يصور عظمة الفتح القدسي في نفسه، وفي نفوس المسلمين جميعاً.

★★★

ويصور العماد السنة التي فُتح فيها بيت المقدس بأنها «الزمان الذي تقضت على انتظار إحسانه الأزمنة، وطُهر فيه المكان المقدس»، بعد أن كان ممتحناً في ظل الاحتلال الصليبي[3].

ويصور القاضي الخطيب محيي الدين بن زكي الدين الفتح القدسي فتحاً عظيماً، فهو «الفتح الأسنى، والنصر الأهنى»، و«النعمة العظيمة، والمفخرة العظمى». وهو الفتح الذي «فُتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء»، وابتهج به الملائكة والأنبياء، وتبادل التهاني به أهل الخضراء، أكثر مما تبادلها أهل الغبراء، كما يقول ابن الزكي[4]. ويعده الفضيلة الكبرى التي شرف الله بها الأمة الإسلامية، «فكأن الله شَرَّف هذه الأمة، وقال لهم: اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم». كما يعده فتحاً «عظيم القدر، جسيم الفخر، فاضل العصر، كامل النصر، ولن يُنسى ذكره إلى يوم الحشر». ويربط ابن الزكي بين هذا الفتح العظيم، والفتوح العظيمة التي حدثت في عهد النبوة، وعهد الخلفاء الراشدين، مثل معارك بدر، والقادسية، واليرموك، وغيرها. يقول

---

(١) الفتح القدسي/ ٤٩، ٥٠. وانظر: شفاء القلوب/ ١٣٩.

(٢) الفتح القدسي/ ٥٣.

(٣) انظر: الروضتين ٢/٧٥.

(٤) انظر: الروضتين ٢/١١٠، ١١١. شفاء القلوب/ ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢١١ ـ ٢٢٠، وفيات الأعيان ٣/٣٦٥ ـ ٣٧١، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٨٧، الأنس الجليل ١/٣٣٢ ـ ٣٤٠.

مخاطباً الجيش الإسلامي المنتصر: «فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوح العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتم بها للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية». ويصور ابن الزكي استرداد بيت المقدس بأنه استرداد للضالة المنشودة التي طالما سعى المسلمون للفوز بها، بعد تخليصها من الأمة الضالة، وردها إلى الإسلام بعد أن بقيت محتلة نحو مائة عام[1].

ويصور القاضي الفاضل الزمان وقد افتخر «بعصر السلطان صلاح الدين في بيت المقدس. وفضل الله أصحاب هذا الفتح بهذه «النصرة القدسية» كما يقول القاضي الفاضل نفسه، والعماد الأصفهاني، وأبوشامة المقدسي[2].

ويعده ابن شداد «فتوحاً عظيماً»، وقد شهده خلق عظيم من أهل العلم، وأرباب الخرق والطرق، ويذكر أنه لما شاع قصده ـ صلاح الدين ـ القدس، قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور»[3].

لقد كان هذا الفتح أهم فتح ينظر صلاح الدين إلى تحقيقه، يُذكر أنه لما أراد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فتح المغرب، قال له صلاح الدين: «لكن فتح بيت المقدس أهم، والفائدة به أتم، والمصلحة منه أخص وأعم، وإذا توجه تقي الدين، واستصحب معه رجالنا المعروفة، ذهب العمر في اقتناء الرجال، وإذا فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل». وأبطل تقي الدين العزم على فتح المغرب[4].

---

(١) انظر: الروضتين ٢/١١٠، ١١١، شفاء القلوب/ ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤.

(٢) انظر: الفتح القدسي/ ١٢٢، الدر النظيم/ ٨٩، ٩١، الروضتين ٢/٩٧، ٩٨، ٩٩، شفاء القلوب/ ١٤٠، ١٤١، صبح الأعشى ٦/٤٩٧، ٤٩٨.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ٨٢، الروضتين ٢/٩٢، وفيات الأعيان ٧/١٧٩، شفاء القلوب/ ١٢٩، ١٣٨، النجوم الزاهرة ٦/٣٧.

(٤) كتاب الروضتين ٢/٧٠.

ولما انتصر المسلمون في طبرية وحطين، وفتحوا الفتوح الكثيرة في عكا، والناصرة، وصفورية، وقيسارية، ونابلس، وحيفا، وغيرها بقيادة صلاح الدين، قال العماد الأصفهاني: وبعد هذا «ما يتأخر النهوض إلى القدس، فهذا أوان فتحه. ولقد دام عليه الضلال، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه»[1].

كان فتح بيت المقدس غاية الغايات التي كان المسلمون يرنون إلى تحقيقها، وكانوا مستعدين للتضحية بالنفوس في سبيلها. ومما يُذكر في هذا المجال أن المنجمين قالوا لصلاح الدين: «على نجمك أن تدخل بيت المقدس، وتذهب عين واحدة منك، فقال: قد رضيت بأن أعمى، وآخذ البلد»[2].

ويُذكر أنه كانت «كل أفكار صلاح الدين منصبة على بيت المقدس، حيث يقع المسجد الأقصى، ثالث مكان مقدس في الإسلام، والصخرة المشرفة التي عرج منها محمد. ولتكن القدس الثمرة الطيبة لانتصاراته الفذة»، وكان فتح القدس شاغله الأكبر، وقد بلغ منيته بتحرير المسجد الأقصى»[3].

★★★

تتردد أصداء الفتح القدسي في الأشعار القدسيات، وتبرز تلك الأصداء جلية في شعر الكثير من الشعراء من أمثال العماد الأصفهاني، وأسامة بن منقذ، والحكيم أبي الفضل عبدالمنعم الجلياني، والرشيد بن بدر النابلسي، وابن الساعاتي، وابن سناء الملك، وسبط بن التعاويذي، وابن جبير، ويوسف بن الحسين بن المجاور، والحسن بن علي الجويني، ومحمد بن أسعد بن علي الجواني، وفتيان الشاغوري، وغيرهم. وأنشأ بعض الشعراء ديواناً خاصاً ببيت المقدس، فقد أنشأ الحكيم عبدالمنعم الجلياني ديوانا سماه «ديوان المبشرات

(١) انظر: الروضتين ٢/٨٩، شفاء القلوب/ ١٢٤.

(٢) انظر: الروضتين ٢/٩٢، شفاء القلوب/ ١٢٨.

(٣) انظر: شعلة الإسلام/ ١٢٠، سيرة القاهرة ـ لين بول/٤٤، ٤٥، الناصر صلاح الدين ـ عبدالمنعم ماجد/ ١٠٣، الناصر صلاح الدين ـ الدهان/ ٦٥، صلاح الدين ـ الوكيل/ ١٦٠، تراث الإسلام ـ باركر/٨٣.

والقـدسيات»، وديوانـاً آخر سماه «ديوان التدبيج» أو «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في مدى ذكر الملك الناصر صلاح الدين».

لقد كان هذا الفتح الآية العظمى كما يقول ابن الساعاتي مستهلاً قصيدة له أنشأها مادحاً صلاح الدين عند فتحه البيت المقدس[1]:

أعـيًّا وقـد عاينـتمُ الآية العُـظْمى ... لأية حالٍ تَذْخَـرُ النشـرَ والنَّـظْمـا
وقد ساغَ فتحُ القُدسِ في كلّ منطقٍ ... وشـاعَ إلى أن أسمـعَ الأسل الصُّمَّا

وهو الفتح العظيم الحاسم الذي كان المسلمون بانتظاره، كما يقول الرشيد النابلسي[2]:

هذا الـذي كانـت الآمـال تنتـظرُ ... فليوفِ لله أقـوامٌ بمـا نَذَروا

وهو فتح ما كان يخطر ببال في ظل أوضاع المسلمين من قبل، ولكنه تحقق بعد توحيد بلاد المسلمين، ووقوفهم صفاً واحداً. وقد سار في جميع الأرجاء، كما يقول العماد الأصفهاني مبشراً الخليفة الناصر بالفتح، في قصيدة أنفذها إليه[3]:

أبْـشِـرْ بفـتـحٍ أمـير المؤمنين أتى ... وصـيتُـهُ في جميع الأرضِ جَوّابُ
ما كان يخـطرُ في بالٍ تَصُّـورُه ... واستُصعِبَ الفتح لمّـا أُغلقَ البابُ
وخـامَ عنـه الملوكُ الأقـدمـون وقـد ... مَضَتْ على الناس من بَلْواه أحقاب

وبهذا الفتح الذي تمناه الملوك، ولم يستطيعوا تحقيقه قبل صلاح الدين، زال الاحتـلال الصليبي الـذي صوره العماد الأصفهاني داءً معضلاً لم يشف المسلمون منه إلا في سنة الفتح، كما يبدو في قوله من قصيدة قالها يمدح بها الملك الأفضل بن صلاح الدين[4]:

والـقُـدسُ أعْضَـل داؤه من قبلكم ... فوفيتـمُ بشفـاء ذاك الـمعضـلِ

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥.

(٢) عقد الجمان للعيني/ حوادث سنة ٥٨٣ هـ، كتاب الروضتين ٢/١١٨.

(٣) سنا البرق الشامي/ ١٧٤، كتاب الروضتين ٢/١٠٢.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٥١، كتاب الروضتين ٢/١٠٧.

دَرَج الـملوكُ على تَمنّي فَتْحـه زمـنـاً وغُـلَّتُـهـم به لَمْ تُبـلَلِ
وأتـى زمـانـكـم فأمكـنَ آخـراً ما قد تَعَـذَّرَ في الـزمـان الأولِ

ويتردد مثل هذا التصوير في قول ابن الساعاتي مصوراً الاحتلال الصليبي، ومشيداً بالفاتح صلاح الدين[1]:

هو منقـذُ البيتِ المُقـدسِ بعـدمـا طالتْ فمـا وجـد الشّفـاءَ شُكـاتُـهُ
بيتٌ تأسس بالـسـكـون وإنـمـا عنـد الـزّحـاف تَحـركَتْ سَكنَـاتُـهُ

وقوله مصوراً ما حل ببيت المقدس، ومبيناً السبيل إلى الخلاص من الداء المتمثل في الاحتلال الصليبي[2]:

ومـا كانَ إلّا الـداءَ أعـيا دواؤه
وغيرُ الحسـام العضب لا يعـرفُ الحَسْمَا
فقـد أصبحتْ نُجـلُ العيونِ بأرضها مخـافـة هنـديّ الـظّبـا تُنْكرُ السُّقْما

★★★

لقد حار الشعراء في هذا الفتح لعظمته، وهم لم يحاروا وحدهم، بل حار المسلمون جميعاً فيه، وفي ذلك سر عظمته. وقد تساءل العديد من الشعراء عن الفتـح: هـل أصبح واقعاً بعد أن كان حلماً؟ وتساءل المسلمون عن مثل ذلك، ولكن الشعـراء عبـروا عمـا يدور في أذهانهم، وفي أذهان المسلمين، وعبروا عما يحسون به، كما عبروا عما يحس به المسلمون إزاء الفتح. إن هذا التساؤل يعبر عما كانوا فيه من يأس يحيط بهم، فيرون أن قمة أحلامهم المتمثلة في تحرير بيت المقدس قد لا تتحقق، ولكن ذلك الحلم أصبح واقعاً، بعد أن كان حلماً في ظل تفرق المسلمين، وتنازعهم، وتخاذلهم، ومحاربة بعضهم بعضاً، يقول الشريف محمد بن أسعد الجواني[3]:

أتـرى مَنَـامـاً ما بعـيني أُبـصـرُ القُـدسُ يُفتَـحُ والفـرنجـة تُكْسَـرُ

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ١/٦٤، ٢/٤١٠، كتاب الروضتين ٢/١٠٦.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥، ٣٨٨، كتاب الروضتين ٢/١٠٦، الغيث المسجم ٢/٣٣.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٠٥، تاريخ الخلفاء/ ٤١٨، دول الإسلام ٢/٩٥.

وهكذا يصور الشعراء بل الأدباء عامة الحسرة التي كانوا يحسون بها إزاء تمنيهم فتح القدس، وتحريره من المحتل الصليبي. ويبدو أن اليأس بلغ منهم مبلغاً كبيراً إزاء ذلك. وليس ذلك إلا لما كان المسلمون عليه في تخاذلهم، وانقسامهم قبل أن يتم الفتح، وقبل بروز أبطال المسلمين من أمثال عماد الدين زنكي، ونورالدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، فهذا العماد الأصفهاني يصور ذلك بقوله: «قد انقرضت الملوك الماضية، والقرون الخالية على حسرة تمنيه، وحيرة ترجيه، ووحشة اليأس من تسنيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم»[1].

وقد بدت تلك التمنيات جلية في قول العماد الأصفهاني أيضاً: «ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصي المنى، وإقصاء الأنجاس من المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مفتتح مراده ـ نورالدين ـ، ومقترح زناده، ومقترحه في جهاده، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده»[2].

وتحققت الآمال التي كانت تراود نفوس المسلمين، وعادت إلى بيت المقدس قدسيته، وعزته، ومكانته السامية، وطهر من الرجس والآثام. وبفتحه حقق «ما كان في النفس، وبدّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالانس، وجعل عز يومه ماحياً ذُلّ أمس». وفتح الله بيت المقدس الذي عجز الملوك الآخرون عن تمنيه، وهو الفتح «الذي لم يخطر تمنيه بخاطر الملوك، وتوعر على عزائمهم نهج طريقه المسلوك». وكان فتحه نصراً من الله. يقول العماد الأصفهاني: «دعانا الله لفتحه فأحببناه، ووعدنا بالفوز فاجبناه، وأوردنا مشرع صفائه فاستعذبناه، وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه، وذخرنا لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه». ويصور العماد كيف كان المسلمون متشوقين للفتح، متلهفين لتحقيقه، يقول: «فما أشوقنا وأشوق القدس إلى قدومه، وما أظمأنا وأظمأه، إلى خصوص الري به وعمومه»[3].

---

(١) انظر: الفتح القدسي/ ١٨١، كتاب الروضتين ٢/٩٧، مرآة الزمان ٨/٣٩٨، شفاء القلوب/ ١٣٨.

(٢) كتاب الروضتين ١/٢١٥، وانظر/ ١٨١.

(٣) انظر: المصدر نفسه ٢/٩٤، ٩٧، ٩٨، ٩٩.

ويصور القاضي الفاضل اليأس الذي كان قد حل بالمسلمين، مما جعلهم ينظرون إلى أن الفتح القدسي حلم قد لا يتحقق. ولما تحقق، كاد المسلمون لا يصدقون ما حدث. يقول: «واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آبقاً، وظفروا يقظةً بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به على النأي طارقاً»[1].

ويصور الحكيم عبدالمنعم الجلياني، في قدسيته الكبرى، السرعة التي تم فيها فتح بيت المقدس، بأنها سر لم يحط المسلمون بحقيقته، يقول[2]:

تَصاريفُ دهرٍ أعْرَبتْ لمن اهتدى ... وبَسْطَةُ أمرٍ أغربتْ من تمردا
لسرعةِ فتحِ القُدسِ سِرٌّ مَغيَّبٌ ... وفي صَرْعةِ الإفرنجِ معتبرٌ بدا

ويصوره في إحدى قدسياته الأخرى، وكأنه كان في عالم الغيب، وهو ما لا يدركه العالم السفلي. وليس ذلك إلا لعظمة الفتح من ناحية، والتعجب المقرون بالحيرة إزاء ما تم على يد صلاح الدين من ناحية أخرى. يقول[3]:

في باطنِ الغيبِ ما لا تُدْرِكُ الفِكَرُ ... فذو البصيرة في الأحداث يعتبرُ
مَنْ ذا يقولُ لعلَّ القُدْسَ مُنْفتحٌ ... إليك بل سِفْرُ يعقوب له السَّفَرُ

ومن خير ما يمثل الحالة التي كان المسلمون عليها، من فرحة بالفتح، وحيرة إزاءه، قول ابن سناء الملك[4]:

لستُ أدري بأيّ فتحٍ تُهنّا ... يا مُنيلَ الإسلام ما قد تَمنّى
كلُّ فتحٍ يقولُ إنّي أولى ... وهو أوْلى لأنه كان أهنا

يذكر العماد الأصفهاني أن الرسل قد وردت للتهنئة بالفتح، من بلاد الشام، وخراسان، والعراق، ومنهم رسول صاحب الري، ورسول همذان

---

(١) الدر النظيم/ ٩٠، رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٠، صبح الأعشى ٦/٤٩٧، شفاء القلوب/ ١٤١.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١١٧.

(٣) نفسه ٢/١١٦.

(٤) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ٨١٣، ٨١٤، (ط مصر)/ ٣٤٠، مفرج الكروب ٢/٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٩١، شفاء القلوب/ ١٥٠، ١٥١.

وأذربيجان، ورسول صاحب بلاد العجم، وغيرهم[1].

★ ★ ★

يعد الشعراء هذا الفتح فتوحاً، ويعده بعضهم من فتوح الأنبياء، كما نجده عند الحسن بن علي الجويني. يقول العماد: «كان فخر الكُتّاب أبوعلي الحسن بن علي الجويني، المقيم بمصر، من أهل بغداد، ينفذ إليّ قصائده لأعرضها، فرأيت أن أثبت له هذه القصيدة في الفتح، وهي مشتملة على ذكر ملوك الإسلام، وإهمالهم له تسعين عاماً، حتى تجرد سلطاننا، فذكرها»، يقول[2]:

جُنْدُ السَّماءِ لهذا المَلْكِ أعوانُ ... من شَكَّ فيهم فهذا الفتحُ بُرْهانُ
متى رأى النّاسُ ما نحكيه في زَمَنٍ ... وقد مَضَتْ قبلُ أزمانٌ وأزمانُ
هذا الفتوحُ فتوح الأنبياء وما ... له سوى الشكر بالأفعال أثمانُ

ويذهب الجويني إلى أن هذا الفتح لو تم في عهد نزول القرآن الكريم، لقيلت فيه آيات بينات. وهو يقصد بهذا تعظيم هذا الفتح القدسي، يقول[3]:

لو أنَّ ذا الفتح في عصر النبيّ لقد ... تَنَزَّلَتْ فيه آياتٌ وقرآنُ

إنه لمن الواضح أن الشاعر يعظم الفتح تعظيماً كبيراً. ويربط بين هذه المعركة الحاسمة في التاريخ الإسلامي. والمعارك الحاسمة في عصر النبوة. وهذا التعظيم من ناحية، وهذا الربط من ناحية أخرى، يعكسان إحساسات الشاعر بالفتح، وهي إحساسات الفرح الغامر بالخلاص من الاحتلال البغيض.

ومن المعارك التي يربط بينها الشعراء وبين الفتح القدسي، معركة القادسية، فهما معركتان ذواتا شأن كبير في التاريخ الإسلامي، ففي معركة القادسية كان القضاء على أعظم امبراطورية كانت تريد القضاء على الإسلام والمسلمين، وفي معركة بيت المقدس، أو الفتح القدسي، كان التحرير

(١) انظر: الفتح القدسي/ ١٣١، الروضتين ٢/١٢٠.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١٠٤.

(٣) نفسه ٢/١٠٥.

والخلاص من العدو الصليبي المحتل، وهو عدو استعماري استيطاني كان يحتل بلاد الإسلام والمسلمين، وكان يريد القضاء عليهما، واحتلال أرض الإسلام، وعلى رأسها بيت المقدس، وعلى ذلك، فهما معركتان انتهتا بانتصار الإسلام والمسلمين، وهزيمة أعدائهما، وهما معركتان حاسمتان في التاريخ الإسلامي يفتخر المسلمون بهما في كافة أنحاء العالم الإسلامي. ولذا جاء الربط بينهما أمرا طبيعياً.

ويربط الشعراء بين شخصية الخليفة عمر بن الخطاب الذي أحرز المسلمون الانتصار في القادسية، في عهده، وشخصية السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي قاد المسلمين إلى النصر في معركة بيت المقدس، وهو ربط طبيعي بين الشخصيتين اللتين فتحتا بيت المقدس، ففي عهد الخليفة عمر كان الفتح القدسي العمري، وفي عهد السلطان صلاح الدين كان الفتح القدسي الصلاحي، وكلاهما فتح عظيم حقاً.

وتتكرر مثل هذه الإشارات التاريخية في هذا الشعر القدسي، وتتمثل في الإشارة إلى الشخصيات الإسلامية البارزة ذات الدور القيادي الحاسم في تاريخ الإسلام والمسلمين، والشعراء في عملهم هذا، ينظرون نظرة إجلال وتقدير إلى تلك الشخصيات البارزة في التاريخ الإسلامي، وهي نظرة تمنى فيها الشعراء ظهور شخصيات قيادية في عصرهم مثل تلك الشخصيات القيادية السابقة، لتخليص المسلمين من الاحتلال وتحدياته.

وهم بذلك يستلهمون التاريخ، ويعتبرون به، وبأحداثه، وبأعمال قادته، ويدعون إلى الاعتبار بذلك، والسير على نهجه للوصول إلى التحرير، تحرير المسلمين وبلادهم، وعلى رأسها بيت المقدس.

وهم بذلك يذكرون أعداءهم المحتلين بقادة المسلمين السابقين، ورموز بطولتهم، ومعاركهم الحاسمة. وفي ذلك تهديد للعدو، وتقرير بأن مصيره سيكون مصير أعداء المسلمين في العصور السابقة، في معارك الإسلام الحاسمة السابقة.

وهم بذلك يربطون بين ماضٍ مجيد، وحاضر مجيد. وإننا لنلمس في ذلك تمجيداً للسلطان صلاح الدين، كما كان فيه تمجيد للقادة السابقين.

يقول الشاعر الحكيم عبدالمنعم الجلياني، في قدسيته الفتحية الناصرية، نسبة إلى الفتح القدسي من ناحية، والسلطان الناصر صلاح الدين من ناحية أخرى، معبراً عما تقدم الحديث عنه، من ربط بين هذا الفتوح الصلاحي، وفتوح القادسية، وبين هذا الفاتح صلاح الدين، والفاتح عمر بن الخطاب[1]:

أما رأيْتُمْ فتوحَ القادسية في أكنافِ (لوبيّة) تُجلَى وذا عُمَرُ

ويربط ابن الساعاتي بين الخليفة عمر بن الخطاب، والسلطان صلاح الدين مشيداً بكل من الفاتحين، كما يبدو في قوله[2]:

فليتَ فتى الخطَّاب شاهدَ فتحها فيشهدَ أن السَّهم من يوسفٍ أصمى
وقد أُوتي الفتحين مالا وبلدةً فلم يُبقِ نصراً ما حواه ولا غُنما

وقوله[3]:

هو الفاتحُ البيتَ المقدَّس بعدما تحامَتْهُ ساداتُ الدُّنا ومسودُها
فضيلةُ فتحٍ كان ثاني خليفة من القوم مُبديها وأنت مُعيدُها

ويربط الحكيم عبدالمنعم الجلياني بين الفاتحين: عمر بن الخطاب، وصلاح الدين الأيوبي، فقد حقق كل منهما النصر في الفتح القدسي. كما يربط بين صلاح الدين وأبي عبيدة، قائد المسلمين في معركة القدس، في عهد عمر بن الخطاب، ويمزج ذلك بتصوير ما كان عليه أهل القدس، كما يبدو في قوله: [4]:

أبا المُظَفَّرِ أنت المُجْتَبى لهدى أُخرى الزمان على خُبْرٍ بخبرته
فلو رآك وقد حُزتَ العُلى عمر في قلة التل قَضَّى كُنْه عِبْرتِهِ
ولو رآك وأهلُ القُدْس في وَلَهٍ أبوعبيدة فَدَّى من مَسَرَّتِهِ

(١) كتاب الروضتين ٢/١١٧.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥، كتاب الروضتين ٢/١٠٧.

(٣) ديوان ابن الساعاتي ٢/٧١، ٢/٤١٠، كتاب الروضتين ٢/١٠٧.

(٤) كتاب الروضتين ٢/١٠٣.

ويصور ابن جبير كيف خص الله السلطان صلاح الدين بهذا الفتح، بعد أن خص به الفاروق عمر بن الخطاب، في صدر الإسلام، كما يبدو في قوله[1]:

لكم ذَخَرَ الله هذا الفتو ح من الزمن الأول الغابرِ
وخَصَّك من بعد فاروقه بها لاصطناعك في الآخرِ

لقد كانت حروب صلاح الدين شبيهة بفتوحات المسلمين الأولى، وقد عبر عنها الشعراء المعاصرون له، في القرن السادس الهجري «بصور بارعة تشهد بصدق المقارنة»[2].

ويصور الشاعر الجلياني أيام الفتح القدسي، في ظل السلطان الفاتح صلاح الدين، بالأيام في عهد الصحابة، رضوان الله عليهم. ويربط بين السلطان الفاتح صلاح الدين والصديق أبي بكر، والخليفة عمر بن الخطاب، والملك المظفر تقي الدين عمر، كما يربط بين العزيز عثمان بن صلاح الدين، وعثمان بن عفان، ويربط بين الملك الأفضل علي بن صلاح الدين، وعلي بن أبي طالب، كما يبدو في قوله[3]:

دارَتْ بك الملةُ الحُسْنى فنحن على عهدِ الصحابةِ في استمرارِ ملَّتِهِ
وأنتَ كاسمك صدّيقٌ وصاحبه الـ ـملكُ المُظَفَّرُ سامٍ في مَبَرَّتِهِ
وفي الثلاثة عثمان يؤيده عَلاَ عليٌّ على ايثارِ نصْرَتِهِ

وتتردد مثل هذه المعاني في شعر الشريف محمد بن أسعد الجوّاني، نقيب الأشراف بمصر، كما يبدو في قصيدة قالها في الفتح القدسي. وفيها يصور هذا الفتح فتحاً للرسول محمد ﷺ، ويصور الفاتح بالخلفاء الراشدين في فعالهم، فهو مثل الصديق أبي بكر، والفاروق عمر فاتح بيت المقدس، وهو مثل عثمان في نصرة الإسلام، وهو مثل علي في دفاعه عن النبوة، يقول[4]:

---

(١) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٥٩٩، رحلة العبدري/ ٩٥، كتاب الروضتين ٢/ ١٠٦.

(٢) الناصر صلاح الدين ـ الدهان/ ٨.

(٣) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٣.

(٤) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٥، تاريخ الخلفاء/ ٤١٨.

مَنْ كانَ هذا فَتْحُهُ لمحمدٍ ماذا يقالُ له وماذا يُذْكَرُ
يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها فاروقُها عمر الإمامُ الأطهرُ
ولأنتَ عثمان الشريعةِ بعده ولأنت في نصرِ النبوةِ حَيْدَرُ

ويذكر العماد الأصفهاني، في حوادث سنة ٥٨١ هـ، أن من وصايا السلطان صلاح الدين، بعد نزول مرض ألم به، قوله: «إن أدركني الأجل المحتوم، ودنا اليوم المعلوم، فقد خلفت أبابكر، وعمر، وعثمان، وعليا، وكلهم أراه بمرادي في إقامة الجهاد مليا، فعنى بأبي بكر سيف الدين أخاه، وبعمر تقي الدين بن أخيه، وبعثمان وعلي ولديه الملكين العزيز والأفضل»(١).

ويفضل الشعراء هذا الفتح على غيره من الفتوح الأخرى، فهو فتح قد تسامى محلاً، وأنار بلاد الإسلام ضياء، إنه فتح عظيم حقاً، يفتخر به المسلمون في سائر أنحاء العالم الإسلامي، كما يبدو في قول الرشيد بن بدر النابلسي(٢):

لا تَرْوِيَنْ لفتوحٍ بعدها قصصاً وإنْ تَعاظَمَ منها الخُبْرُ والخَبَرُ
توضح الدَّهرُ عن يوم أغرّ به يُزْهى ويفتخر الآصال والبُكرُ
يومٌ تعالى محلاً واستنارَ سناً فدون مرتبتيه الأنْجُمُ الزُّهُرُ
بمثل ذا الفَتح لا والله ما حُكيَتْ في سالفِ الدَّهر أخبارٌ ولا سِيَرُ

وهو فتح حاسم قضى على ما كان الأعداء المحتلون يكنونه، ويفعلونه، وخلص بيت المقدس مما كان يرزح تحته. وهو فتح كالشمس المنيرة التي تكشف كل ما عداها، إذا ما قورن بالفتوح الأخرى، كما يبدو في قول الشاعر فتيان الشاغوري(٣):

فَلْيهنِهِ الفتحُ الذي سُدَّت به عن مُلْكِهِ أبواب غَدْر الأدْهُرِ
فتحٌ تطأطأ كلُّ فتح دونه والشمس تكسِفُ كلَّ جسمٍ نَيِّرِ

---

(١) انظر: الروضتين ٢/٦٥.

(٢) انظر: الروضتين ٢/١١٨، عقد الجمان للعيني/ حوادث سنة ٥٨٣ هـ، شفاء القلوب/ ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٣) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٢.

وقوله مصوراً يوم الفتح وكأنه يوم الحشر، وهو يعبر بذلك عن هوله وعظمته[1]:

وأرَيتَهُمْ لمـا التقى الجمعـان باليـ ـتِ المُقـدسِ هَوْلَ يومِ المحْشَرِ

ويبلغ الأمـر ببعض الشعـراء أن يصـوروا الفتـح القدسي أعظم من كل الفتـوحات السابقة واللاحقة، وكأنه «لم يكن منذ عصر الصحابة، رضي الله عنهم، له نظير»[2]. وفي هذا مبالغة إلى حد ما، يقول العماد الأصفهاني[3]:

ما كان قطُّ ولا يكـون كفتـحكـم للقُدس في الماضي ولا المستقبلِ
أُوجـدتمُ منـه الـذي عدم الـورى وفـعلتمُ في الفتـحِ ما لَمْ يُفعـلِ
أيدي الملوك تقـاصَـرَتْ عن مَفخـرٍ طُلْتُـمْ به فبـلوا لبـعض الأنـمـلِ

★★★

ويصـور الشعراء الفتح القدسي ملحمة من الملاحم، فهو ملحمة قادها صلاح الدين، ومن أولئك الشعراء فتيان الشاغوري، إذ يصوره ملحمة كتبت بالدماء، وقد كانت السيوفُ المعربَ الفصيحَ فيها، وكانت الرماح الخطَّ الذي كتبت به، كما كانت السهامُ ما نقط به ذلك الخط. وكان الحبْر الذي كُتبت به دماً، وأما دفترها الذي كتبت فيه فهو ثرى ديار المسلمين. وكانت تلك الملحمة ذاتَ ألحان طالما تاقت الآذان إلى سماعها، وهي ألحان، تمثلت في صهيل الخيول، كما يبدو في قوله[4]:

أنْشـأتَ ملحمـةً تُمِـلُّ مقـاتـلَ الفُرْسـانِ بالعـددِ الـذي لم يُحصرِ
إعـرابُهـا ضَرْبُ الحسـامِ ونقْطُهـا وَقْـعُ السِّهـامِ وخَـطُّهـا بالسَّمهـري
والـحبـرُ بحـرٌ تَعَـظْمطَ مَوْجُـهُ إذ ليسَ ثَمَّ سوى الثـرى من دفتـرِ
والـبـيضُ تنشـرُ وهـي غيرُ خواطبٍ والسُّـمْـرُ ناظمـةٌ وإنْ لم تَشعُـرِ
والـخـيلُ مطربـةٌ كأن صَهيلَهـا شَدْوُ الـنُّحَيْلَة في نسيب البحتـري

(١) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٣.
(٢) كتاب الروضتين ٢/٩٨.
(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٥١، كتاب الروضتين ٢/١٠٧.
(٤) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٢، ١٤٣.

نَشْـوى تميدُ من السـرور كأنمـا صَبحتْ كؤوسـاً من شراب مُسْكِرِ
فلقـد وَأدْتَ الـشِّـرْكَ يومَ لقيتـهمْ وغَـدوْتَ للإسـلام عِينَ الـمُنْشِـرِ
ورددتَ دينَ الله بعـد قُطوبـه بالمسجـد الأقصى بوجـهٍ مُسْفِـرِ
وأعـدتَ ما أبـداه قبـلك فاتـحـاً عمـر فأنـتَ شريكُـهُ في المَتْجـرِ

ويصـور الشـاعـر الشـاغوري صلاح الدين ربّ الملاحم، وهي ملاحم يفضلها على كل ما تقدمها من ملاحم، كما يبدو في قوله[1]:

ربُّ الـمـلاحِـم لم يُؤرخ مثـلهـا العلمـاء قِدْ ما في قديمِ الأعْصُـرِ

ويقرن بعض الشعراء بين هذه الملاحم التي قادها صلاح الدين في سبيل الإسلام والمسلمين، وما كان في عصر النبوة من ملاحم، كما يبدو في قول الحكيم عبدالمنعم الجلياني، في قصيدة قدسية مخاطباً صلاح الدين[2]:

يا فاتحَ المسجدِ الأقصى عليَّ بهم وقـانص الجيش لا يُحصى بقَفْـزتِهِ
أبْشِـرْ بمُلْكٍ كظهـر الشمس مُطَلّعٍ على الـبـسيطةِ فَتّـاحٍ بنَـشْـرتـهِ
حتى يكـون لهـذا الـدّين ملحمـةَ تحـكـي الـنبـوة في أيامِ فتـرتِـهِ

ويربط بعض الشعراء بين ملاحم صلاح الدين، وملاحم الإسكندر ذي القـرنين، ويفضلونها على تلك الملاحم، ومنهم الشاعر الحكيم عبدالمنعم الجلياني، في قصيدته القدسية الفتحية الناصرية، يقول[3]:

هذا المليكُ الـذي بُشْـرى النبيّ به في فتنـةِ البغي للإسـلام ينتصـرُ
أنْسَى ملاحمَ ذي القـرنين واعترفَتْ له الـرواةُ بمـا لم يُنْـمِـهِ أثَـرُ
أعين إسكنـدر بالخضـر وهـو له عونٌ من الله يستـغـني به الخضـرُ
وصنـع ذي العَـرْش إبداع بلا سبب فلا تقـل كيف هذا الحادثُ الخطرُ

ويبدو مثل ذلك مبالغاً فيه كما في قول الرشيد بن بدر النابلسي[4]:

ألْمِمْ بدارِ النّـاصـرِ الملْكِ الـذي في كفِـهِ للجـودِ سبعـةُ أبْـحُـرِ

(١) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤١.
(٢) كتاب الروضتين ٢/١٠٣.
(٣) نفسه ٢/١١٧.
(٤) نفسه ٢/١١٨.

فإذا مَزَرْتَ بمُـلْكِـهِ وفـتـوحِـهِ فاسْخـرْ بمـا يُروى عن الإسكنـدرِ

★★★

وكانت آثار الفتح القدسي عظيمة في نفوس المسلمين، وفي ديار الإسلام كلهـا، وكانت البشرى كبيرة بهذا الفتح العظيم، كما كان الابتهاج به عظيماً كذلـك. وقـد صور الأدبـاء تلك البشـرى، وذلـك الابتهـاج، وبرز جلياً في أشعارهم، ورسائلم، وخطبهم.

يصور العماد الأصفهاني السلطان صلاح الدين، وقد جلس بمخيمه ظاهر القدس للهناء، وكانت الوجوه سافرة بنور البشر، والعيون تدمع من فرط المسرة، والقلوب خاشعـة لفرحها بالنصر، والألسنة تضرع إلى الله مبتهلة مرددة ترانيم الشكر. ولما «تسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، وفدوا للزيارة من كل فج عميق»[1]. وسُيِّرت كتب البُشرى بالفتح، بطلب من السلطان صلاح الدين. يقول: «لما تم الفتح الأكبر، وخص دعم النجح الأظهر، وقطع دابر المشركين، وحط إقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين، أمرني السلطان بإنشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشرى به إلى العراق»[2].

وكتب القاضي الفاضل كتباً أُخرى تهنىء بالفتح القدسي، وتتحدث عن آثاره في مختلف المجالات.

كان أثر الفتح القدسي أثراً عظيماً في نفوس المسلمين، فقد عاد الحق إلى نصـابـه، وزهق البـاطـل، وعاد الايمان إلى وطنه بعد أن كان غريباً في ظل الاحتلال الصليبي. وكانت سعادة المسلمين غامرة بذلك، فقد ذُكر أن السلطان صلاح الدين قال: «إن أسعدنا الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس، فما أسعدنا، وأيّ يد له عندنا إذا أيدنا»[3]. ويصور العماد كيف «تهلل وجه السعد بنضارة البيت المقدس، وزادت الوجوه بشرا»، يقول: وكان ذلك الفتح «بشرى تجلو الـوجـوه ببشـرها، وتضوع مهاب المحاب بنشرها، ويغرف أهل الشرق

(١) انظر: الروضتين ٢/٩٦.

(٢) انظر: الفتح القدسي/ ١٨٣.

(٣) انظر: الروضتين ٢/٩٤.

والغرب سجال غربها، وتقر عين المؤمنين في البعد والقرب بأنوار قربها، عاد التقديس إلى الأرض التي به وصفت، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى ﴿باركنا حوله﴾ عُرفت، وظهرت الصخرة المقدسة وطُهِّرت . . . ، واستبشر المنبر والمحراب بخطيبه وإمامه»[1].

لقد كان هذا الفتح ذا أثر كبير في الإسلام والمسلمين، فبه «صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصائرها، واستتبت عقائد أهله على أبين بصائرها، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه». كما يقول القاضي الفاضل. ويصور أثره وقد أصبحت الأرض المقدسة طاهرة، وكانت طامثاً في ظل الاحتلال الصليبي[2].

وتتردد تلك البشائر بالفتح في أدب أدباء المسلمين، فقد تحدثوا عن الآثار التي نجمت عنه دينياً، وسياسياً، ونفسياً، وفكرياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وعمرانيا. ويصور العماد الأصفهاني تلك الآثار في قول مجمل يشير فيه إلى آثار الفتح في مجالاتها المختلفة، يقول: «. . . وتلي التنزيل، وحق الحق، وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان، وصُفَّت السجادات، وصَفَت العبادات، وأقيمت الصلوات . . . ، وأعليت الرايات، ونطق الآذان، وخرس الناقوس . . . ، وعاد الايمان الغريب إلى وطنه . . . ، وورد القراء، وقرأوا الأوراد، واجتمع الزهاد، والعباد، والأبدال، والأوتاد . . . ، وأملى الحفاظ، وأبكى الوعاظ، وتذاكر العلماء، وتناظر الفقهاء، وتحدثت الرواة، وروى المحدّثون . . . ، ولخص المفسرون . . . ، وانتدى الفضلاء، وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، والمتوشحون بالإصابة، المعروفون بالفصاحة»[3]. ومن هذا النص يتبين الأثر جلياً في مجال إقامة الشعائر الدينية

---

(١) انظر: الروضتين ٢/٩٨، ٩٩.

(٢) انظر: رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٨، ١٦٩، الدر النظيم/ ١٧، ٢١، وفيات الأعيان ٧/١٨٠، ١٨٢، صبح الأعشى ٦/٤٩٧، شفاء القلوب/ ١٤١، ١٤٣.

(٣) انظر: الفتح القدسي/ ١٣٨، الروضتين ٢/١٠٨، ١٠٩.

كما كان الحال قبل الاحتلال، كما يتبين في مجال الحياة الفكرية، وعقد مجالس الوعظ، والمجالس الأدبية والعلمية، والمناظرات، وما إلى ذلك.

لقد عُني الشعراء بالحديث عن أثر الفتح دينياً، كما عنوا بآثاره السياسية، فإن أشعارهم القدسية تعد لوناً من ألوان الشعر السياسي الذي يصور الحرب بين المسلمين وعدوهم الصليبي المحتل. وهو لون من الشعر الذي عني به المجتمع المسلم صاحب الحق والأرض، في فترة الحروب الصليبية.

يركز الشعراء المسلمون في قدسياتهم على الحديث عن عودة الايمان إلى وطنه، وإقامة أحكام الله فيه، وإعلان شعائره، وتطهير بيت المقدس من رجس الاحتلال، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني، مهنئاً السلطان بفتح القدس، وهو مخيم عليه[1]:

وطَهَّرْتَهُ من رِجسهمْ بدمائهم
فأذهبتَ بالرِّجسِ الذي ذهبَ الرِّجْسا

نَزَعْتَ لباسَ الكفر عن قُدس أرضها ... وألبَستها الدّين الذي كَشَفَ اللَّبْسا
وعادتْ ببيت الله أحكامُ دينه ... فلا بطركاً أبقيتَ فيها ولا قسّا
وقد شاعَ في الآفاق عنك بشارةٌ ... بأنّ أذان الله قد أبطلَ النَّقْسَا

ويصور العماد هذا النصر حياة للهدى والايمان، وموتاً للكفر، وقمع طواغيته، يقول مخاطباً صلاح الدين، مشيداً به[2]:

وجاء عَصْرُك والأيامُ مقبلةٌ ... فكان فيه لفيض الكفر إنضابُ
نصرٌ أعادَ صلاحُ الدين رونَقَهُ ... ايجازه ببليغ القول إسهابُ
أحيا الهدى وأمات الشِّرْك صارمُهُ ... لقد تَجَلَّى الهدى والشرك منجابُ
بفتحه القدس للإسلام قد فتحت ... في قمع طاغية الإشراك أبوابُ

ومثل ذلك قول الحكيم عبدالمنعم الجلياني[3]:

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢، كتاب الروضتين ١٠٢/٢، عقد الجمان للعيني ٢٥/ حوادث سنة ٥٨٣ هـ، معجم الأدباء ٢٧/١٩، شفاء القلوب/ ١٥٠.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٥، سنا البرق الشامي/ ١٧٤، كتاب الروضتين ١٠٢/٢.

(٣) كتاب الروضتين ١٠٣/٢.

أضحى لنشر الهدى في فتح منهجه وبات يطوى العدى في سَدّ ثغرتهِ

وقول الحسن بن علي الجويني مصوراً أثر الفتح، ومشيداً بصاحبه[1]:

وهذه سَنةٌ أكرم بها سَنةً فالكفرُ في سِنة والنصرُ يقظانُ

ويصور ابن سناء الملك تخليص الإسلام مما كان يرزح تحته في ظل الاحتلال الصليبي، وعودة الحياة إليه، يقول مخاطباً صلاح الدين، مشيداً به[2]:

إنّ دينَ الإسلام مَنَّ على الخلـ ـق وأنت الذي على الدّين مَنّا
أنتَ أحييتهُ وقد كان ميتاً ثم أعتقته وقد كان قنّا

ويصور ابن جبير الفتح القدسي ثأراً لدين الإسلام من أعدائه الصليبيين المحتلين الذين أرادوا استئصاله من جذوره، كما يبدو في قوله مخاطباً صلاح الدين[3]:

ثأرتَ لدّين الهدى في العِدا فآثرك الله من ثائر
فتحتَ المقدَّس من أرضه فعادت إلى وصفها الطاهر
وجئتَ إلى قدسه المُرتَضى فخلصته من يد الكافر
وأعليتَ فيه منارَ الهدى وأحييت من رسمه الدائر

وما أجمل الأبيات التي يصور فيها الرشيد بن بدر النابلسي آثار الفتح القدسي في نفوس المسلمين، فقد هدأت تلك النفوس واستقرت بعد أن ارتفع علم الايمان عالياً فوق المسجد الأقصى، وعادت حرية العبادة إلى سالف عهدها قبل الاحتلال، وأصبح البيت المقدس قبلة للمسلمين يقصدونه من كل حدب وصوب، وزالت آثار الشرك وأهله المحتلين، كما يبدو في قوله[4]:

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.

(٢) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ٨١٤، (ط مصر)/ ٣٤٠.

(٣) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٥٩٩، رحلة العبدري/ ٩٤، ٩٥، كتاب الروضتين ٢/١٠٦.

(٤) عقود الجمان للعيني ٢٥/حوادث سنة ٥٨٣ هـ، كتاب الروضتين ٢/١١٨، شفاء القلوب/ ١٦٦، ١٦٧.

الآن قَرَّتْ جُنـوبٌ في مضـاجعهـا ونـامَ مَنْ لم يزلْ حِلْفـاً له السَّهَـرُ
الآن طاب إلى البيت المقدَّس كالـ ـبيت الـمحـرّم إحـرام ومعتمـرُ
يا بهجة القُدْس أن أضحى به علم الـ ايمـان من بعـد طيّ وهـو منتشـرُ
يا نور مسجده الأقصى وقـد رُفعتْ بعـد الـصليب به الآياتُ والسُّـوَرُ
الله أكـبـر صوتٌ تَقـشـعـرُّ له شُمُّ الـذّرى وتكـادُ الأرضُ تنفـطرُ

ويصور ابن الساعاتي آثار الفتح القدسي عند المسلمين واعدائهم، وهي آثار تبدو متضادة، فقد نجمت عنه آثار سرت المسلمين، ولكنها ساءت الأعداء الصليبيين المحتلين، كما يبدو في قوله[1]:

تحـلُّ به الأضـدادُ واللفظُ واحـدٌ فكمْ سَرَّ قلبـاً في الأنـام وكم غَمّـا
وتنـدى مغـانيه ومـا جادهـا الحيا ولا سحبتْ ريحُ الصَّبـا فوقهـا كُمَّـا

★★★

لقد كان هذا الفتح القدسي نصراً من عند الله، عز شأنه وعلا، وليست هذه الفكرة جديدة في فترة الحروب الصليبية، وهي فكرة تتردد في الشعر العربي منذ صدر الإسلام. وقد جاءت هذه الفكرة مرتبطة بالعقيدة الإسلامية، وما جاء في كتابها السماوي العظيم، مبيناً أن نصر المسلمين نصر من عند الله.

وتتـردد هذه الفكـرة في الأشعـار القدسيات، ومن ذلك ما يقوله الحكيم عبدالمنعم الجلياني، في قصيدته الفتحية الناصرية[2]:

وأنـجـزَ الله للسـلطان موعـده ونَـذْره في كفـور دينـه السبـطرُ

ويعد الجلياني هذا النصر معجزاً من ناحية، كما يعده مخلداً للفاتح صلاح الدين من ناحية أخرى، كما يبدو في قوله[3]:

أرى الله فيه معجـز النصـر مخلصاً لأمر صلاحِ الدّين في الناس مخلدا

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١١٧.

(٣) نفسه ٢/١١٨.

وهـو النصـر الـذي وعد الله به رسوله. وعلى المسلمين أن يتوجهوا إلى خالقهم بالشكر، كما يبدو في قول محمد بن أسعد الحلبي المعروف بالجواني[1]:

قد جاءَ نصـرُ الله والفتـحُ الـذي وُعـد الـرسـولُ فسبحـوا واستغفـروا

ويتحدث الشعر عن مشاركة جند السماء في هذا الفتح القدسي، ومن ذلك ما يبدو في قول الحسن بن علي الجويني[2]:

جنـدُ السَّمـاءِ لهـذا الملْكِ أعـوانُ من شَكَّ فيهم فهـذا الفتـح بُرهـانُ

ويصور القاضي الخطيب محيي الدين بن الزكي التوجه بالشكر إلى الله لما منحه من النصر العزيز، ويبدو جلياً في استهلال خطبته التي ألقاها في المسجد الأقصى بعد تحريره، بالشكر والتحميدات، وقد أطال في تحميداته، واستهلها بالفاتحة، واقتبس آيات قرآنية كريمة في مجال التحميد. ولم يقتصر على ذلك، فقد أورد تحميدات أخرى تناسب المقام الذي كان يتحدث فيه[3]. وقد كان المقـام يستـدعي الحمـد حقـاً، بعـد أن طال أسر بيت المقدس، وأقصاه، وصخرته، وبعد أن يئس المسلمون من تحرير الأرض المقدسة من المحتل الصليبي.

★★★

ويصور الأدباء الفتح وقد عجزت الألسن عن إعطائه حقه لعظمته، فمهما دبجـت الأشعار، والرسائل، والخطب، فإنها لن تستطيع إعطاءه حقه، كل ذلك على الرغم مما قيل من أشعار قدسيات، ورسائل مبشرات وقدسيات، وخطب قدسيات. ويقـر الشعـراء، والكُتّـاب، والخطباء بعجزهم عن ذلك، فالعماد الأصفهاني يعده فتح الفتوح، ويصوره بأنه «قد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونثراً»[4]. ويصوره القاضي الفاضل «منقبة لا يبلغ إلى وصفها بلاغة موجزة

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٥، دول الإسلام ٢/٩٥، تاريخ الخلفاء/ ٤١٨.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١٠٤، وانظر ص ٥٠ من هذا البحث.

(٣) نفسه ٢/١١٠، ١١١.

(٤) نفسه ٢/٩٧.

ولا مسهبة»[1] كما يصوره بحراً «للأقلام فيه سبح طويل»[2].

وتتردد أصداء هذه الفكرة في الشعر في فترة الحروب الصليبية، وهي فكرة تتردد في شعر الحروب في العصر العباسي، عند أبي تمام، والبحتري، وأبي الطيب المتنبي. وتمثل هذه الفكرة تعظيماً للفتح الذي يتحدثون عنه، ويتغنون به. لقد وصف الرشيد بن بدر النابلسي الفتح القدسي فتحاً يجل عن قول كلّ أديب، كما يبدو في قوله معظماً الفتح القدسي[3]:

تجـلُّ علياه عن مدحٍ يُحـيط به ... وصفٌ وإن نظمَ المُـدّاحُ أو نَثَـروا
يا نعـمـةً كبـرتْ عنـد الأنـام له ... قَدْراً ففي كلِّ شكـرٍ عنـدهـا صِغـر
لا تروينْ لفتـوحٍ بعـدهـا قصصاً ... وإن تعـاظمَ منهـا الخُبْـرُ والخَبَـرُ

ويعد العماد الأصفهاني القول البليغ في الفتح القدسي إسهاباً، كما يبدو في قوله[4]:

نصـرٌ أعـاد صلاحُ الـدّين رونقـه ... ايجـازه ببـليغ الـقـول إسـهـابُ

★ ★ ★

وتصور الأشعار القدسيات الرباط المقدس بين الأماكن المقدسة في فلسطين والحجاز، الأقصى المبارك، والصخرة المشرفة، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي، فالمسجد الحرام، والمسجد النبوي يتلقيان البشرى بخلاص المسجد الأقصى وتحريره، وإعادة إقامة الشعائر الإسلامية فيه، وعودة علم الايمان مرفرفاً فوق أعاليه. والحجر الأسود يتلقى التهاني بخلاص الصخرة المشرفة وتحريرها.

يصور القاضي الفاضل الحجر الأسود يهنىء الصخرة المشرفة بخلاصها

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٩٩.

(٢) رسـائـل عن الحرب والسلام/ ١٦٨، الدر النظيم/ ١٧، وفيات الأعيان ٧/١٨٠، صبح الأعشى ٦/٤٩٧.

(٣) عقد الجمان / حوادث سنة ٥٨٣ هـ، شفاء القلوب/ ١٦٦.

(٤) سنا البرق الشامي / ١٧٤، كتاب الروضتين ٢/١٠٢.

وتحريرها، وبت عصمتها من العدو الصليبي حرباً[1].

ويصور العماد الأصفهاني المسجد الأقصى أخاً للمسجد الحرام، يقول: «فما أسّر البيتَ الحرامَ بفكاك أخيه من الأسر، وإجراء الإسلام فيه، لغسل أوضار الكفر»، وقد «عاد المسجد الأقصى إلى مداناة المسجد الحرام»[2].

وبعد الفتح القدسي، أحرم المسلمون من البيت المقدس إلى البيت العتيق، كما كانوا يحرمون منه قبل الاحتلال الصليبي أيضاً.

إن الرباط السماوي، والرباط الأرضي، بين الأماكن المقدسة في بيت المقدس، والأماكن المقدسة في بلاد الإسلام، يتمثل في تصوير بيت المقدس بأنه «المسجد الأقصى، المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار الأبدال، وملائكة السماء...، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر»[3]. وفيه الصخرة المشرفة والأقصى المبارك. وهو أولى القبلتين، وثاني البيتين، وثالث الحرمين، وإليه تشد الرحال، وهو «منزل الوحي، بمحل الإسراء، ومقر سيد المرسلين، وخاتم النبيين بمقام الرسل والأنبياء...، وأدام أهل الإسلام بشرف بيته مستمعين[4].

ويصور الأدب الاستجابة لنداءات الصخرة المشرفة التي طالما استصرخت بالمسلمين، فلبى صلاح الدين نداءاتها واستصراخها، يقول العماد الأصفهاني: «وقد كانت الصخرة مستصرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخة، فأجيبت دعوتها، وأصيبت حظوتها...، ودنا المسجد الأقصي للقاصي والداني»[5]. ويصور أثر تخليصها مما كان يلحق بها في ظل الاحتلال، وتعلق نفوس المسلمين بها فيقول: «ولقد غُسلت من أردان الكفر وأدناسه، وطُهِّرت من أرجاس أنجاسه بمياه العيون التي قذيت، وصقلت بشفاه المؤمنين، وطالما

(١) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٠، الدر النظيم/ ١٨، وفيات الأعيان ٧/ ١٨٠، صبح الأعشى ٦/ ٤٩٧.

(٢) انظر: الروضتين ٢/ ٩٨، ٩٩.

(٣) انظر: الفتح القدسي/ ١٢٢، الروضتين ٢/ ٩٤.

(٤) كتاب الروضتين ٢/ ٩٦.

(٥) نفسه ٢/ ٩٧.

بأيدي الشرك صديت، وأُعيد إليها ذكر الله بعد طول الغربة، وتذكرت بصحبة الأولياء ما سلف لها في عهد الصحابة، رضي الله عنهم، من حسن الصحبة»[1].

وما أجمل الصورة التي يصور العماد بها الصخرة المشرفة وحنينها، كما يبدو في قوله: «وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك السراج الوهاج، والحمد لله على سلوك ما وضح من المنهاج، ونضوب ما كان نبع من الأجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاج، وصدق الحاج مبشرة بما فضل الله به عصرنا، وعجل به نصرنا. . .» كما يقول[2].

لقد تردد صدى تخليص الصخرة المشرفة، والمسجد الأقصى المبارك، من الاحتلال الصليبي في الأعمال الأدبية، وتردد صدى تعلق المسلمين بهما في بلاد الإسلام، فالقاضي الفاضل يصور كيف خفقت أعلام المسلمين فوق الأقصى، والتقت قُبلهم على الصخرة، وقد أحسوا بالنشوة بالنصر، يقول: «واستقرت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قُبَلُهم، وشُفيت بها وإن كانت صخرة كما تُشفى بالماء غُللهم»[3].

لقد بدا الرباط جلياً بين الأماكن المقدسة في ديار الإسلام، وهو رباط سماوي، ورباط أرضي، ويعود ذلك إلى القدسية التي تتحلى بها الأماكن المقدسة لدي المسلمين، كما تقدم.

يصور الشعر بيت المقدس أرض المحشر، ومن ذلك ما يبدو في قول محمد بن أسعد الحلبي المعروف بالجواني، من قصيدة قالها بمناسبة الفتح القدسي[4]:

فُتح الشآم وطُهِّرَ القدس الذي هو في القيامة للأنام المحشرُ

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٩٨، ٩٩.

(٢) ينظر: نفسه ٢/٩٧، ٩٩.

(٣) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٠، الدر النظيم/ ١٨، وفيات الأعيان ٧/ ١٨٠، صبح الأعشى ٦/٤٩٧، ٤٩٨.

(٤) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.

وتبدو هذه القدسية جلية في قول ابن جبير من قصيدة قالها مشيداً بالسلطان صلاح الدين، كماتقدم في قوله «فتحت المقدس من أرضه. . . »[1] :

ويربط الشعراء بين البيت المقدس والبيت الحرام، ويصورون قدسية كليهما، ويربطون بين الصخرة المشرفة والحجر الأسود، كما يربطون بين تخليص البيت المقدس وتحريره من الاحتلال الصليبي، وبين البيت الحرام وتخليصه من الأوثان وعبادتها، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني، من قصيدة أنفذها إلى الخليفة الناصر بمناسبة الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ[2]:

فَفي موافقةِ البيت المقدَّس لله ... بيت الحرام لناتيهِ وإعجابُ
والصخر والحجر الملثوم جانبه ... كلاهما لاعتمار الخلق محرابُ
نَفى من القُدس صلباناً كما نُفيتْ ... من بيتِ مكة أزلامٌ وأنصابُ

ويصور ابن الساعاتي ما أحست به مكة والمدينة بالفتح القدسي، كما يصور الضريح النبوي جذلاً بالفتح، يقول[3]:

حَبَا مكةَ الحُسْنى وثَنَّى بيثربٍ ... وأطربَ ذيّاك الضّريحَ وما ضما

وتتردد مثل هذه المعاني الدينية في قصيدة أُخرى لابن الساعاتي يشيد فيها بصلاح الدين، ويصور ما شعر به البيت العتيق إزاء الفتح القدسي، وما شعرت به مدينة الرسول، ﷺ، كما يبدو في قوله[4]:

أحسنتَ بالبيت العتيق ويثربٍ ... ولك الفعالُ كثيرةٌ حسناتُهُ
هذي سيوفُك مُحرماتٌ دونه ... لبكائهن تَبسمتْ حُجراتُهُ

وبهذا الفتح القدسي جمع السلطان صلاح الدين بين الصخرة المشرفة، وبين مواضع المناسك ومشاعرها في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، كما يبدو في قول الشاعر فتيان الشاغوري، من قصيدة يمدح بها السلطان، «ويذكر ما

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٦. وانظر ص ٦٠ من هذا البحث.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٥، ٧٦، كتاب الروضتين ٢/١٠٢، ١٠٣، سنا البرق الشامي/ ١٧٤.

(٣ ، ٤) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤١٠، كتاب الروضتين ٢/١٠٦.

منحه الله من الفتح المبين، والنصر العزيز»، بمناسبة الفتح القدسي»[1]:

ورددتَ دين الله بعد قطوبهِ بالمسجد الأقصى بوجهٍ مُسْفِرِ
حتى جمعت لمعشر الإسلام بيـ ـن الصخرة العُظمى وبين المشعَرِ
فكأنه إنسانُ عينٍ صورةً يَلقاك أسودُه بمعنى أنْوَرِ

* * *

وكان من آثار الفتح القدسي فكرياً أن عاد المسجد الأقصى إلى أداء دوره في الحياة الفكرية، وذلك كما فصلت القول فيه في كتابي «الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي»[2]. وأنشئت المدارس، والزوايا، والخوانق، والرباطات. وقد قامت بأداء دورها في الحركة الفكرية في بيت المقدس، وذلك كما فصلت القول فيه أيضاً في كتابي «المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، دورها في الحركة الفكرية»[3].

يصور العماد الأصفهاني المسجد الأقصى وقد أُقصي منه الصليبيون المحتلون، و«سكن العلماء والفقهاء» مكانهم الذي كانوا يحتلونه. يقول: «ودُرِّس فيه الخلاف والمذهب، والحمد لله الذي تسنى بفضله هذا المطلب»[4]. يُضاف إلى هذا ما تقدم من تصويره للحركة الفكرية في بيت المقدس بعد الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ.

وفي حديثه عن «وصف الصخرة المعظمة»، يصور كيف «رتب السلطان في قبة الصخرة إماماً من أحسن القراء تلاوة. . .، وأعرفهم بالقراءات السبع بل العشر». كما يصور بعض مجالس صلاح الدين مع العلماء والأتقياء في بيت المقدس، وإنشاء المدرسة الصلاحية وغيرها من المدارس هناك. ومما يصور هذا الأثر في المجال الفكري قول العماد: «. . . فما ترى إلا قارئا باللسان

(١) ديوان فتيان الشاغوري / ١٤٣، كتاب الروضتين ٢ / ١١٩.

(٢) انظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي.

(٣) انظر المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي.

(٤) كتاب الروضتين ٢ / ٩٨، ٩٩.

الفصيح، وراوياً للكتاب الصحيح، ومتكلماً في مسألة، ومتفحصاً عن مشكلة، ومورداً لحديث نبوي، وذاكراً لحكم مذهبي، وسائلاً عن لفظ لغوي، ومعنى نحوي، أو مُقرِّضاً بقريض . . . »[1].

★★★

ويصور الشعر تحرير بيت المقدس، وغيرها من بلاد الإسلام، عامل أمن واستقرار. ومن ذلك ما نجده في شعر ابن الساعاتي، إذ يتحدث عما نجم عن الفتح القدسي من نشر للأمن، يقول من قصيدة يمدح فيها صلاح الدين، عند فتح القدس، في سنة ٥٨٣ هـ[2]:

لقد سَكَّنَ الدهياءَ أمناً وغبطةً فهل كان لفظاً سار أو عسكراً دُهما

ويتحدث الأدب عن إلغاء المكوس، وقد كان الغاؤها عاملاً مشجعاً للمشتغلين بالتجارة. يشير العماد الأصفهاني إلى إطلاق صلاح الدين المكوس، كما يبدو في قصيدة قدسية قالها مهنئاً بفتح القدس، وكان صلاح الدين مخيماً هناك، وفيها يصور بعض ما لحق بالعدو الصليبي إثر الفتح القدسي[3]

فكيف مَكَسْت المشركين رؤوسَهُمْ ودَأْبُك في الإحسان أن تُطلق المكْسَا

وكان العماد نفسه قد تحدث في حوادث سنة ٥٧٤ هـ، عما أسقطه السلطان صلاح الدين من «مكس مكة عن الحاج»، وقد اغتبطت النفوس بذلك[4]. ويصور القاضي الفاضل أثر ذلك في النفوس أيضاً، ويربط بين صنيع صلاح الدين والحديث عن بيت المقدس وتحريره من الاحتلال الصليبي. ويبدو ذلك جلياً في حديثه عن «انقطاع المكاسين عن جدة، وعن بقية السواحل»، ثم يقول مخاطباً صلاح الدين: «وغير خافٍ عن مولانا همة الفرنج

---

(١) الفتح القدسي/ ١٤١، ١٤٢، ١٤٥، ١٥١.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥، الغيث المسجم ٢/٣٣.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٣.

(٤) كتاب الروضتين ٢/٣، النجوم الزاهرة ٦/٢٧٨، شفاء القلوب/ ٩٣.

بالقدس براً وبحراً، ومركباً وظهراً، وسلماً وحرباً، وبعداً وقرباً، وتوافيهم على حماسة، وهو أنف في وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مر الأيام، ومعاذ الله أن يستبصروا في الضلال، ونُصرف نحن عن الحق، ويضيق بنا في التوسعة على أهله سعة المجال»[1] كماتقدم .

ويتحدث ابن جبير عن صنيع صلاح الدين هذا، يشيد به، ويعد صنيعه من المفاخر «المُزلفة من الله تعالى» . وفي هذا يقول شعراً من قصيدة يمدح فيها صلاح الدين[2]:

رفعتَ مغارمَ مكس الحجا ... ز بإنعامك الشامل الغامرِ
وأمَّنْتَ أكناف تلك البلا ... د فهان السبيل على العابرِ
وسحتْ أياديك فياضةً ... على واردٍ وعلى صادرِ
فكم لك بالشرق من حامدٍ ... وكم لك بالغرب من شاكرِ

ويتحدث ابن جبير في قصيدته هذه عن الزكاة، وما قد يلحق من مخالفة في تطبيق هذا الواجب على المسلم، يقول[3]:

ألا ناصحٌ مُبْلِغٌ نُصحَهُ ... إلى الملك الناصر الظافرِ
ظلوم تَضمَّنَ مالَ الزكا ... ة لقد تَعِسَتْ صفقةُ الخاسرِ
يُسِرُّ الخيانة في باطنٍ ... ويُبْدي النصيحةَ في الظاهرِ
فَأَوْقِعْ به حادثاً إنّه ... يُقَبِّحُ أحدوثةَ الذاكرِ
فما المنكير من زاجرٍ ... سواك وبالعرف من آمرِ
وحاشاك إن لم تُزِلْ رسمها ... فمالك في الناس من عاذرِ
ورفعك أمثالها موسع ... رداء فخارك للناشرِ

---

(1) انظر: الروضتين ١/٣، ٤ .

(2) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٦٠٠، رحلة العبدري/ ٩٥، كتاب الروضتين ٢/٤، نفح الطيب ٢/٣٨٣ .

(3) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٦٠١، رحلة العبدري/ ٩٥، ٩٦، كتاب الروضتين ٢/٤ .

صورة فاتح بيت المقدس

لقد أصبح ذكر صلاح الدين الأيوبي خالداً بتحريره بيت المقدس في سنة ٥٨٣ هـ، من الاحتلال الصليبي. ويتمثل ذلك في مظاهر ومجالات عديدة، ومن أهمها الصدى المتمثل فيما صُنف حول سيرته وجهاده من المصنفات، وما أُنشيء من الرسائل والخطب، وما أُنشد من الشعر الكثير، من مبشرات وقدسيات.

لقد صنفت مصنفات عديدة حول سيرة صلاح الدين وجهاده، ومن أهمها ما صنفه معاصره القاضي بهاء الدين يوسف بن شداد، وهو كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية». ومثله معاصره العماد الأصفهاني في كتابه «الفيح القسي في الفتح القدسي». وكتابه «البرق الشامي»، ففي أولهما يتحدث عن جهاده بين سنتي ٥٨٣ هـ و ٥٨٩ هـ. ويعد ثانيهما تاريخاً لصلاح الدين. ومنها كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة المقدسي. وفيه يتحدث عن الدولتين الزنكية، والصلاحية. ومنها كتاب «السيرة الصلاحية» ليحيى بن أبي طي الحلبي، وهو كتاب لم يصل إلينا. وصنفت كتب خاصة في سيرته، وسيرة أهل بيته عامة، ومنها: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي، و«ترويح القلوب في أخبار بني أيوب» للمرتضى الزبيدي، و«شفاء القلوب» في مناقب بني أيوب لأحمد بن ابراهيم العسقلاني الحنبلي، و«أخبار الأيوبيين» للمكين جرجيس بن العميد، و«الدر المطلوب في أخبار بني أيوب» لعبدالله بن أيبك الدوادار.

وسأركز في تبين صورة الفاتح على الأشعار القدسيات، والرسائل القدسيات والخطبة القدسية دون غيرها. وإذا ما استشهدت بما ورد في المصادر التاريخية، فليس ذلك إلا للتحقق مما ورد في الشعر، والرسائل، والخطبة، حول صورة صلاح الدين، والموازنة بين ما ورد في الشعر، وما ورد في التاريخ.

أنشئت رسائل قدسية كثيرة حول الفتح القدسي، وقد تحدثت عن الفاتح،

ومنها رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير.

وأما الخطب القدسية، فقد كان من المتوقع أن تكون كثيرة، ولكنه لم يصل إلينا منها سوى خطبة واحدة للقاضي ابن الزكي، في سنة ٥٨٣ هـ.

وفي مجال الشعر، تغنى الشعراء بالانتصارات التي أحرزها المسلمون بقيادة صلاح الدين، وعلى رأسها فتح بيت المقدس. ومن أولئك الشعراء العماد الأصفهاني، وابن سناء الملك، وابن الساعاتي، وعبدالمنعم الجلياني، والرشيد بن بدر النابلسي، وفتيان الشاغوري، وغيرهم. وتجدر الإشارة إلى أن الجلياني أنشأ دواوين شعرية خاصة ببيت المقدس، وبالفاتح السلطان صلاح الدين، ومنها «ديوان المبشرات والقدسيات» و«ديوان التدبيج» أو«ديوان المدبجات» أو«منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في مدى ذكر الملك الناصر» السلطان صلاح الدين. وسأتحدث عن هذه الدواوين بالتفصيل في بحث خاص بعبدالمنعم الجلياني في مبشراته وقدسياته، كما تقدم.

يوصف صلاح الدين بأنه «منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين، خادم الحرمين الشريفين»[1]. يصفه العماد الأصفهاني فيقول: «. . . وهو الذي ملك ملوك الشرق وغل أعناقها، وأسر طواغيت الكفر وشد خناقها، وقطع أصلابها، وجمع كلمة الإيمان وعصم جنابها، ونظم أسبابها»[2].

كان صلاح الدين مهتماً بالجهاد في سبيل الله. وقد قضى حياته مجاهداً للحفاظ على الإسلام والمسلمين. و«كان الجهاد وحبه، والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا كان له اهتمام الا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره، ويحث عليه»[3]. ويبين القاضي الفاضل أن الجهاد في سبيل الله كان من أهم

(١) النوادر السلطانية/ ١٣.

(٢) العتبى والعقبى (عن الروضتين) ٢/٢٢٥.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ٢١، ٨٦، كتاب الروضتين ٢/٢٢١، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٢٧.

مقاصده ومراده. ويصوره متأهباً «للخروج نحو الكفار، لا تسأم رايته النصب، ولا جهة سيره الرفع، ولا جيشه الجر، ولا يصغي إلى قول خاطر الراحة. . . ، ولا يجيب دعوة الفراش الممهد، ولا يعرج على الظل المدد، ولا دمية القصر المشيد» كما جاء في رسالة كتبها في سنة ٥٧٩ هـ[١]. ويصوره، في المنشور الذي كتبه على لسان الإمام العاضد الفاطمي، في سنة ٥٦٤ هـ، مجاهداً ويحثه على الجهاد لتحرير بيت المقدس وغيره من بلاد الإسلام المحتلة، يقول: «والجهاد أنت رضيع دره، وناشئة حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الخيل مساكنك، وفي ظلمات قساطله تجلى محاسنك، وفي أعقاب نوازله تُتلى مناقبك، فشمر عن ساق من القنا، وخض فيه بحراً من الظبا. . . ، وأسل الوهاد بدم العدى، وارفع برؤوسهم الربا، حتى يأتي الله بالفتح. . . »[٢].

كان صلاح الدين يرى أن الجهاد فرض، وكان واثقاً من النصر، يقول: «قد أمرنا الله بالجهاد لأعداء الدين، وافترضه علينا، فنحن قائمون في طاعته بأداء ما افترض علينا من الجهاد، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد، ولو اجتمع علينا أهل الأرض، لتوكلنا على الله تعالى»[٣].

لقد تمثلت أهداف صلاح الدين في توحيد بلاد المسلمين، والجهاد ضد العدو المحتل، ويُصور السلطان في عنايته بالجهاد بأنه كان يتحدث مع جلسائه في «ذكر فضائل الجهاد، وفرائض التأهب له». ولما مرض في سنة ٥٨١ هـ، نذر أنه إن خلصه الله من مرضه «اشتغل بفتح البيت المقدس، ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس، وأنه لا يصرف بقية عمره إلا في قتال أعداء الله، والجهاد في سبيله، وإنجاد أهل الإسلام، والإقبال على قبيله «كما يقول العماد الأصفهاني»[٤].

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٤٨.

(٢) نفسه ١/١٦١.

(٣) مفرج الكروب ٢/٢٦١، كتاب الروضتين ٢/١٢٩.

(٤) كتاب الروضتين ٢/٦٥. شعلة الإسلام/١٣٤.

ويصور القاضي الفاضل السلطان «آخذا في أسباب الجهاد»، ويبين أن تكاليف الجهاد قضت بـ «فتح الفتوح العظام في أقل الأيام، وفصل القضية بين أهل الإسلام» وأعدائه، ويهنئه القاضي الفاضل، بما فتح الله عليه من محبة الجهاد[1].

كان بعض المسلمين يصفون السنة المجدبة بأنها ليست سنة جهاد، ولكن صلاح الدين كان مستعداً للجهاد في كل الأوقات، حتى في السنة المجدبة، قيل لصلاح الدين، وقد قصد حصار حصن بيت الأحزان في سنة ٥٧٤ هـ: «ليس هذه سنة جهاد، فإن استمنحوك السلامة فامنح، وإن جنحو للسلم فاجنح، فقال السلطان: إن الله أمر بالجهاد، وكفل بالرزق، فأمره واجب الامتثال، ووعده ضامن الصدق، فنأتي بما كلفنا لنفوز بما كفله، ومن أغفل أمره أغفله»[2].

وكان صلاح الدين صابراً محتسباً في الجهاد، كما كان صابراً محتسباً في غير ذلك من الأمور[3].

★★★

يعبر الأدباء: شعراؤهم، وكتابهم، وخطباؤهم عن هذا الرمز البطولي، في أدبهم القدسي الجهادي.

لقد تغنى شعراء العصر ببطولة صلاح الدين، من أمثال ابن سناء الملك، وابن الساعاتي، والعماد الأصفهاني، والرشيد النابلسي، وعبدالمنعم الجلياني، وفتيان الشاغوري وغيرهم. ويصور الشعر صلاح الدين مجاهداً في سبيل الإسلام، ملبياً داعي الجهاد، دون غيره من الملوك الذين كانوا صُمّاً، لم يصغوا إلى استغاثة الإسلام، وبهذا استطاع أن يطهر القدس، ويخصلها مما

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٢، ٣، ١٩.

(٢) نفسه ٢/٥، ٦.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ٢٤ ـ ٢٧، الروضتين ٢/١٨، مضمار الحقائق/ ١٤١، ١٤٤، النجوم الزاهرة ٦/١١، شفاء القلوب/ ٦٤.

كانت ترزح تحته من احتلال، كما يبدو جلياً في قول أبي علي الحسن بن علي الجويني[1]:

هذا وكم مَلِك من بعده نظر الإسـ ـلام يُطوى ويحوى وهو سكرانُ
تسعونَ عاماً بلادُ الله تصْرُخ والـ إسلامُ أنصارهُ صُمٌّ وعميانُ
فالآن لَبّى صلاحُ الدين دعوتهم بأمر من هو للمعوانِ معوانُ
في نصفِ شهرٍ غدا للشرْك مصطلماً فطُهِّرتْ منه أقطارٌ وبُلدانُ

ويفضل الشعراء صلاح الدين على غيره من الملوك الآخرين الذين لم يخلصوا لدينهم، ولا لوطنهم، ولم تكن تهمهم إلا ذواتهم ومصالحهم، كما يبدو في قول ابن الساعاتي، من قصيدة قالها في فتح طبرية[2]:

يقاتلُ كلُّ ذي مُلْكٍ رياءً وأنتَ تُقاتلُ الأعداء دينا

ومثله قول ابن سناء الملك من قصيدة يمدح فيها صلاح الدين، ويهنئه بالنصر[3]:

قد تَعنيتَ حين أحببت وجه الـ له بالحرب والمحبُّ مُعنَّى

وبهذا قضى صلاح الدين على جحافل جيش العدو المحتل، كما يبدو في قول ابن الساعاتي[4]:

أمُشَتِّتَ الأعداءِ وهي جحافلٌ عن شَمْلِ دين جُمعتْ أشتاته

وتصوره الأشعار القدسيات محيياً للهدى، ومميتاً للضلال، فقد أعاد شعائر الدين كما كانت قبل الاحتلال الصليبي، وقمع الشرك وأهله، ولذا فهو جدير بالثناء والتمجيد، كما يبدو في قول ابن سناء الملك[5]:

إنّ دينَ الإسلامِ مَنَّ على الخلْـ ـق وأنت الذي على الدّين مَنّا
أنتَ أحْييتَهُ وقد كان مَيتاً ثم أعْتقْتَهُ وقد كان قِنّا

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.
(٢) ديوان ابن الساعاتي/ ٤٠٦.
(٣) ديوان ابن سناء الملك (ط مصر)/ ٣٤٠.
(٤) ديوان ابن الساعاتي ١/٦٤، ٢/٤١٠، كتاب الروضتين ٢/١٠٦.
(٥) ديوان ابن سناء الملك (ط بيروت)/ ٨١٣، ٨١٤ وانظر ص ٥٩ من هذا البحث.

شكَـرَ الله ما صَنعْـتَ على العَـرْ ... شِ وفي غَرْصَـةِ المـلائـكِ أثنى
لك مدحٌ فوقَ الـسـمـوات يُنْشَـا ... ومـحـلٌّ فوق الأسِـنَّـةِ يُبـنـى

وتصـوره ثائـراً-قد أخـذ بالثـأر من أعداء دينه، ونصر الله، وجاهد صابراً محتسباً، فكانت تسميته الملك الناصر، ويوازن بينه وقد نذر نفسه للجهاد، وبين غيره من الملوك الذين آثروا راحتهم وملذاتهم، كما يبدو في قول ابن جبير[1]:

وقـمْـتَ بنـصـرِ إلـه الـورى ... فسَـمَّـاك بالـمـلِك الـنـاصـرِ
وجـاهـدتَ مجـتـهـداً صابـراً ... فلله دَرُّكَ من صابـرِ
تبـيتُ الـمـلوك على فُرْشِـهـا ... وتَـرْفُـلُ في الـزَّرَدِ الـسـابـرِ
وتـؤثـرُ جاهـدَ عين الجهاد مَنْ ... على طيب عيشـهـمُ الـنـاضـرِ
وتَـسْـهَـرُ ليْلك في حقِ مَنْ ... سيرضـيك في جَفْـنـك الساهـرِ

وتصوره وقد انتصف للدين الإسلامي من العدو الصليبي المحتل، وبذا قويت أركـان الملة المحمـدية كمـا يقـول نجم الدين يوسف المعروف بابن المجاور، ويصوره والداً للدين عطوفاً بأبنائه[2]:

شُدَّتْ قُوى أركـانِ ملةِ أحـمـد ... وتَـحـمَّـلَتْ بجهـاده في المـوقفِ
مولـىً غدا للدّين أكـرم والـدٍ ... حَدِبٍ على أبـنـائـه مُتَـرفِّـرفِ
وعـليه أُنْـزِلَ في الجهـاد مُفصَّـلٌ ... فلذاكَ يَقْـرأه بسـبـعـةِ أحـرُفَ

وما أجمل قول نجم الدين بن المجاور، وهو يصور صلاح الدين محيياً دين محمد، وساتره «من بعد طول تكشف» في اثناء الاحتلال الصليبي، ويصوره كيف قاد حركة الجهاد، وضبطها بالسيف، والعزم، والرأي، كما يبدو في قوله[3]:

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٦، الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٥٩٨، ٥٩٩، رحلة العبدري/ ٩٤، ٩٥.

(٢، ٣) كتاب الروضتين ٢/١٠٣، ١٠٤.

وضَبَطْتَ ديوانَ الجهادِ بعاملٍ ... من عاملٍ وبمشرفٍ من مشرفي
وبجهبذ العَزْم الذي لا ينثني ... وبناظرِ الرأي الذي لم يطرف

ويصور الشعر صلاح الدين مجاهداً في سبيل تحرير مدينة بيت المقدس خاصة، وأنه هو الجدير بتحريرها دون غيره من ملوك المسلمين، وقد طهرها من الاحتلال، ورفع فيها شعار الدين، ونزع شعار الكفر ورموزه، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني، من قصيدة هنأ بها صلاح الدين بالفتح القدسي، وهو مخيم عليه[1]:

فلا يَسْتَحِقُّ القُدْسَ غيرُك في الورى ... فأنتَ الذي من دونهم فَتَحَ القُدْسا
ومِنْ قبل فَتْح القُدْسِ كنتَ مقدَّساً ... فلا عدمتْ أخلاقُك الطُهْرَ والقُدْسَا
وطَهَّرْتَهُ من رجسهمْ بدمائهمْ ... فأذهبتَ بالرِّجْس الذي ذهب الرِّجْسَا
نَزَعْتَ لباسَ الكُفْر عن قُدْسِ أرضها ... وألبَسْتَها الدّينَ الذي كَشَفَ اللَّبْسَا
وعادتْ ببيت الله أحكامُ دينه ... فلا بَطْرَكاً أبقيتَ فيها ولا قسَّا

وبالفتح القدسي العظيم، أحرز صلاح الدين المآثر والمفاخر، وهو الذي آثره الله بهذا الفتح، كما يبدو في قول الشاعر فتيان الشاغوري[2]:

مَضَت الملوكُ ولم تَنلْ عُشرَ الذي ... أُوتيتَهُ من مَنْجحٍ أو مَفْخَر
وبذاك آثَرَكَ الإلهُ عليهمُ ... يا مُؤْثِراً أُوزعتَ شكر المؤثِر

ويصور فتيان الشاغوري تحرير بيت المقدس، وتطهيره بقيادة صلاح الدين، كما يبدو في قوله[3]:

لِمَ لَمْ تَدنْ شُوشُ الملوكِ وقد ... مَلَكَ السواحُل في ثلاثةِ أشهرِ
واسْتنفذَ البيتَ المقدَّس عنوَةً ... من كلِّ ذي نَجسٍ بكلِّ مطهَّرِ

ويصور الحكيم عبدالمنعم الجلياني صلاح الدين فاتحاً المسجد الأقصى، ومنقذاً القدس من الجبابرة المحتلين[4].

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢، كتاب الروضتين ٢/ ١٠١، ١٠٢، عقد الجمان للعيني ٢٥/ حوادث سنة ٥٨٣ هـ، شفاء القلوب/ ١٥٠.

(٢) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٦.

(٣) ديوان فتيان الشاغوري ٢/ ١٤١.

(٤) نظر: كتاب الروضتين ٢/ ١٠٣.

وبهذا وصل صلاح الدين إلى تحقيق الآمال التي كان يسعى إلى تحقيقها، كما كان المسلمون يسعون إلى تحقيقها، يقول ابن الساعاتي في قصيدة يمدح بها الناصر صلاح الدين بمناسبة الفتح القدسي[1]:

وَصولٌ إلى الغاياتِ والفكرُ قاصرٌ فكيفَ يفوتُ السَّبْقَ من ركبَ العَزْما
ففي لَهواتِ الشِّرك أرسلها شجىً وفي جبهةَ الأيام غادَرَها وَسْما

ويصور العماد الأصفهاني الزمان مفتخراً بعصر صلاح الدين وفتوحاته التي كانت مقدمة للفتح القدسي[2]، ويتغنى الشعراء بتلك الانتصارات والفتوحات، وتتردد أصداؤها في أشعارهم[3].

★★★

تصور الاشعار القدسيات السلطان صلاح الدين ربّ الملاحم التي تفوق غيرها من الملاحم، وهو الذي بنى دولته بالسيوف، والرماح، وباقتحام المهالك، فدانت له شوس الملوك، واستنقذ البيت المقدس، وملك السواحل، في ثلاثة شهر، وهو الذي عفر تيجان الملوك في التراب، وأذل كل أصعر منهم، ونصر الإسلام، ووأد الشرك، كما يقول الشاعر فتيان الشاغوري مخاطباً صلاح الدين[4]:

بالسيفَ ردَّ السيفُ بحراً من دمٍ ينبوعُهُ من هامةٍ أو منْخَر
بحرٌ صوارمُهِ القَنَا وقُلوعه راياتُه والسُّفْنُ كلُّ مُضمَّر
أرسلتَ من خلل العجاج صواعقاً تَهمي عليهم من فتوق كنهوَرِ[5]

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥.

(٢) انظر: النوادر السلطانية/ ٤٣٨، الروضتين ٢/٩٩، الكامل ١١/٣٦٥، ٥٢٩ ـ ٥٥٨، ١٢/٥ ـ ٢٣، ٥٢٧ ـ ٥٣١، النجوم الزاهرة ٦/٣٥ ـ ٤٣، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٤٥ ـ ٣٤٧، ٨/١٨٦ ـ ١٨٨، حسن المحاضرة ٢/١٧، ١٨، شفاء القلوب/ ٦٠، ٩٩، ١١٨، ١٢٢ ـ ١٢٦، ١٥٣، شعلة الإسلام/ ١١٨ ـ ١١٩.

(٣) انظر: ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٨، مفرج الكروب ٢/٢٠٠، كتاب الروضتين ٢/٨٥، ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢، ٢٣٣، الروضتين ٢/١٠٢.

(٤) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦.

(٥) كنهور: قطع من السحاب كالجبال، أو المتراكم منه.

أغلى الأداهم من أسَرنَ وأُرخِصتْ بيضُ الصوارم من نهاب العسكَر
وجعلتَ شرقَ الأرض يَحْسُدُ غَرْبها بك فهو داع دعوة المستنصر

ويصور الشاعر عبدالمنعم الجلياني ملاحم صلاح الدين، وقد أنست ملاحم ذي القرنين[1]. كما أنسى عزمه عزم ابن مرداس، كما يبدو في قول الشاعر نجم الدين بن المجاور[2]:

عزمٌ وحلمٌ أنسيا ما كان من عَزْمِ ابن مرادس وحلم الأحنفِ
يا أيُّها الملكُ الذي لطباعِهِ وسيوفِهِ خُلقا رضى وتعسفِ
سَنتْ سيوفُك في الرؤوس ختانةً ذهبتْ بمهجةِ كلِّ علجٍ أقْلفِ[3]

ويصوره العماد الأصفهاني يطرب لمقارعة السيوف في المعركة، كما يبدو في قوله[4]:

قَرْعُ الظُّبى بالظُّبى في الحرب يُطربُهُ لا قينةٌ صَنَعٌ باللّحن مِطرابُ

ويصوره ابن الساعاتي صاحب العزمات القوية التي جاءت بالفتح القدسي المبين، كما يبدو في قوله، في فتح طبرية[5]:

جَلَتْ عَزَماتُك الفَتْحَ المبينا فقد قَرَّتْ عيونُ المسلمينا
لقد جَرَّدْتَ عَزْماً ناصرِّياً يُحدِّثُ عن سناه طورُ سينا
وأذعنَ كوكبٌ لما تَهادتْ نجومُ ملوكها لك مُذْ عنينا
فكنت كيوسف الصدّيق حقاً له هوت الكواكبُ ساجدينا

وهي عزمات مسددة في الحروب كما يقول ابن الساعاتي[6]، وهي عزمات

---

(١) انظر: الروضتين ٢/١١٦ - ١١٧.

(٢) نفسه ٢/١٠٣، ١٠٤.

(٣) الأقلف: من لم يختن.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٥، كتاب الروضتين ٢/١٠٢.

(٥) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٦، مفرج الكروب ٢/١٩٨، كتاب الروضتين ٢/٨٤، النجوم الزاهرة ٦/٣٤، مرآة الزمان ١٤/١٥٢، شفاء القلوب/ ١٢٦.

(٦) انظر: ديوان ابن الساعاتي ١/٦٤، ٢/٤١٠، الروضتين ٢/١٠٦

تقود إلى النصر كما يقول العماد الأصفهاني في قدسيته التي هنأ بها السلطان بالفتح، وهو مخيم في القدس[1]:

كسرتهمُ إذ صَحَّ عَزْمُك فيهمُ ونكَّسْتَهُمْ إذ صارَ سهمهمُ نكْسَا
بواقعةٍ رَجَّتْ بها الأرض جيشهمْ دماراً كما بست جبالهم بَسَّا

ويصور ابن الساعاتي سطوات صلاح الدين كما يبدو في قوله[2]:

سَلوا الساحل المخشيَّ عن سَطواتِهِ فما كان إلا ساحلاً صادفَ اليمَّا

ويصوره عبدالمنعم الجلياني صاحب العزمة القصوى والرمية المقصدة، وبها كان فتح الفتوح العظمى، ويصوره أسداً منتصراً، كما يبدو في قوله[3]:

أهوى إليهم صلاحُ الدّين مفترساً وهو الغضنفر عدّى ظفرهَ الظَفَرُ

ومثله قول ابن جبير[4]:

وكَمْ لك من فتكةٍ فيهمُ حَكَتْ فتكةَ الأسَدِ الخاتِرِ

وقول عبدالمنعم الجلياني[5]:

لكنَّ بأسَ صلاح الدّين أذهلهمْ بوقعةِ التَّلّ واستشراء سَوْرَتِهِ
يُعيي الجوارحَ والفرسانَ وهو على بدء النشاطِ عشياً مثل بكرته

قاد السلطان صلاح الدين المسلمين إلى النصر في الكثير من المعارك ومنها «حطين» التي قاد صلاح الدين المسلمين فيها إلى النصر، وهي المعركة التي كانت مقدمة للفتح القدسي. ومن الشعراء الذين خصوها بعنايتهم الشاعر الحكيم عبدالمنعم الجِلياني. يقول في قصيدته التي سماها «القصيدة الفتحية الناصرية»[6]:

يا وقعَةَ التَّلّ ما أبقيتِ من عَجَبٍ جحافلٌ لم يَفُتْ من جَمعها بَشَرُ

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/٨٣.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٦.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١١٦.

(٤) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٥٩٨ ـ ٦٠١، رحلة العبدري/ ٩٤ ـ ٩٦كتاب الروضتين ٢/١٠٦.

(٥) كتاب الروضتين ٢/١٠٣.

(٦) نفسه ٢/١١٦.

ويا ضُحى السبتِ ما للقوم قِد سَبَتُواً تهوّدوا أم بكأسِ الطَّعن قد سَكِروا
ويا ضريحَ شُعَيب ما لهم جثموا كَمِدْينَ أم لقُوا رَجْفاً بما كفروا
حطُّوا بحطين ملكاً كافياً عجباً في ساعةٍ زالَ ذاك المُلْكُ والقَدَرُ

ويقول الجلياني في قصيدته القدسية الكبرى، مصوراً ما لحق بجبابرة الفرنج، والمصير الذي آلوا إليه، بعد وقعة يوم التل، وهي الملحمة التي يفضلها على غيرها[1]:

وما طَرَقَ الأسماعَ من عهد آدمٍ كملحمة التلّ التي تلت العِدا
أتوا وادياً ما زال ينفي خبائثاً ويصفى بعقبي الدار طائفة الهدى
به جَثَمتْ أصحابُ لَيْكةَ وهي في ذُراه وذَا فيه شعيب تأيّدا

ويصورها العماد الأصفهاني معركة حاسمة قضى فيها صلاح الدين على الكفر وأهله، ويشيد فيها بالسلطان وفرسانه[2]:

هَبَطْتَ على الأرْدُنّ رُدْنا من القنا رُدَيْنيّةً مُلْداً وخَطية مُلْسَا
حَطَطْتَ على حِطينَ قَدْرَ مُلوكهمْ ولم تُبْقِ من أجناسِ كُفرهمُ جِنْسا
ونعمَ مجالُ الخيلِ حِطينُ لم تكنْ معارُكها للجُرُد ضَرْساً ولا دَهْسَا
غداةَ أسودُ الحَرْبِ مُعْتقِلو القَنَا أساودُ تبغي من نحور العِدا نَهْسَا

ويصور ابن المجاور تحرير الساحل، وما اصبح عليه بعد زوال الاحتلال الصليبي فيقول[3]:

ما للسواحل غَيْرُ بحرك حافظٌ بشَبَا سنانٍ أو بصفحة مُرْهَفِ
هذا الطرازُ الأخضرُ استفتحته فَزَهَا بثوبٍ من عُلاك مُسَجَّفِ

ويوازن الرشيد النابلسي بين فتوحات صلاح الدين وفتوحات الإسكندر، ويشيد بفتوحه، ويقلل من شأن فتوحات الإسكندر في هذا المجال، كما يبدو في قوله[4]:

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١١٧، ١١٨. وانظر: نفسه ٢/١٠٣.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/٨٣، مرآة الزمان ١٤/ ق ١٥٢، النجوم الزاهرة ٦/٣٤، معجم الأدباء ١٩/٢٤، ٢٥.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٠٤.

(٤) نفسه ٢/١١٨.

فإذا مَرَرْت بملكه وفتوحه فاسْخَر بما يُرْوى عن الإسكندر

ولم تكن فتوحات صلاح الدين وانتصاراته سهلة المنال، فقد بذل الكثير الكثير في سبيل تحقيقها، وقاد المسلمين إلى ثغور الصليبيين التي كانوا قد احتلوها، فحررها، وقضى على أركان دولتهم التي أقاموها مستعمرين مستوطنين، ويبدو ذلك جلياً في قصيدة للرشيد بن بدر النابلسي، قالها في فتح القدس، ومنها قوله[1]:

لقد فَتَحْتَ عَصِّيّاً من ثغورهمُ لولاك ما هُدَّ من أركانها حَجَرُ
تركتَ أرضهم من طول ما عَمرَتْ منهم بلاقع لا أُنثى ولا ذكرُ

ويصور فتيان الشاغوري كيف تبنى الدول عامة، وكيف بنى صلاح الدين دولته خاصة، فيبين أن بناء الممالك لا يتم إلا بالسيف من ناحية، وبإقامة العدل، ونشر الأمن، ورعاية الرعية رعاية حقه، كما يبدو في قوله[2]:

تُبنى الممالكُ بالوشيجِ الأسمرِ والبيضُ تلمعُ في العَجاج الأكْدَرِ
وبكل أجردَ شَيْظم يعدو إلى الـ ـهيجا بمقتحم المهالكِ مِسْعَرِ
والعدلِ والإحسانِ والمعروفِ مُمـ ـلوءَ الحياضِ لموسر ولمُعْسِرِ
والحلمِ والعفوِ اللَّذين شذاهما مُتَضَوِّعٌ كأريج مِسك أذْفرِ
كفعال مولانا صلاح الدِّين ذي المجد الغُدامِسِ والعطاءِ الكوْثَرِ

ويصور الحكيم الجلياني ملاحمه خارقة وكأنها الأساطير، كما يبدو في قوله[3]:

ولابن أيوب في الافرنج ملحمةٌ دَلَّتْ عليها أساطير وحسبانُ

ويصور رايته خفاقة فوق البلاد التي حررها، كما يبدو في قوله أيضاً[4]:

أرى الرايةَ الصفراءَ يَرْمي اصطفاقُها بني أصفرٍ بالراعفاتِ اللهاذمِ
فَتَسبي فِلسطيناً وتجبْى جزائراً وتملكُ من يونانَ أرضَ الأساحمِ
وتعْنُو لها الأمْلاكُ شَرْقاً ومَغرباً بذا حكمتْ حُذّاقُ أهلِ الملاحمِ

---

(١) شفاء القلوب/ ١٦٦.
(٢) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤١.
(٣، ٤) كتاب الروضتين ٢/١١٦.

ولهـذا كله، توجـه الشعـراء بتهـانيهم للسلطان النـاصر صلاح الـدين، وهم يعبرون في ذلك عن أحاسيسهم ومشاعرهم، كما يعبرون عن أحاسيس الأمة الإسـلامية ومشـاعـرها إزاء الانتصارات التي أحرزها المسلمون بقيادة صلاح الـدين، ومن ذلـك ما قالـه ابن سنـاء الملك متغنياً بفتـوحـات صلاح الدين وانتصـاراته، ومعبراً عن أحاسيسه، وأحاسيس المسلمين في جميع بلدانهم، كما يبدو في قوله[1]:

وتَـهـادَتْ عرائسُ الـمُـدْنِ تُجلَى ... وثـمـارُ الأمـوالِ مِنْـهـنَّ تُجْنـى
لا تُخصُّ الشـآمُ فيك التـهـاني ... كلُّ صقْـع وكـلُّ قطر مُهـنـى
قَدْ مَلكتَ البـلادَ شَرْقـاً وغـربـاً ... وحَـوَيْتَ الآفـاق سَهـلاً وحَـزنـا

ويبدو ابن سناء الملك حائراً في توجيه التهاني إلى صلاح الدين، وقد رأى أن كل فتح جدير بالتهنئة، كما يبدو في قوله مهنئاً بكسر الفرنج، وملك بلاد الشام[2]:

لَسْـتُ أدْري بأيِّ فَتْـحٍ تُهَـنّـا ... يا مُنـيلَ الإسـلام ما قد تَمَـنَّـى
كُلُّ فَـتـحٍ يقـولُ إنِّـي أوْلـى ... وهـو أوْلـى لأنَّـه كان أهْـنـا
أسهـلَ الله إذ تملكـتَ شامـاً ... أم نُهـنّـيك إذ تمـلكـتَ عَدْنـا
قد مَلَكْتَ الجنـانَ قَصـراً فقصْـراً ... إذ فَتَحت الشـآمَ حِصْنـاً فَحِصْنـا

ومثله قول فتيان الشاغوري[3]:

لم تَخْـلُ سمعـاً مِنْ هنـاءِ مُهَنِّىءٍ ... للمـسـلمـين ومِـنْ سَمـاع مُبشِّـرِ

وقول ابن الساعاتي[4]، وقول ابن جبير مبشراً صلاح الدين بالنصر، والقضاء على الأعداء الذين تمد رقابهم «إلى سيفه الباتر» كما يقول[5].

---

(١) ديوان ابن سناء الملك/ ٨٢٠، مفرج الكروب ٢/ ٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/ ٩١.

(٢) ديوان ابن سناء الملك/ ٨١٣، ٨١٤، مفرج الكروب ٢/ ٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/ ٩١، شفاء القلوب/ ١٩٠.

(٣) ديوان فتيان الشاغوري/ ٧٠.

(٤) ديوان ابن الساعاتي ٢/ ٤٠٦ ـ ٤٠٨، كتاب الروضتين ٢/ ٨٤ ـ ٨٥.

(٥) نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه من أهل الزمان/ القسم الثاني/ ٥٩٨، رحلة العبدري/ ٩٤، كتاب الروضتين ٢/ ١٠٥،

وقد تمت كل هذه الفتوحات والانتصارات بالجيوش الإسلامية التي قادها السلطان صلاح الدين، وكانت تلك الجيوش قد نالت عناية كبيرة منه، فقد وضع نظاماً للجيش، رتب به أحواله، وأمراءه، وجنده، وأمواله، وجعل له ديواناً خاصاً عرف بديوان الجيش[1].

وعمل صلاح الدين على أن يكون الجند مرتبطين بعقيدتهم، وكان حريصاً على تربيتهم تربية إسلامية، وتقوية الروح الدينية في نفوسهم.

لقد كان جند المسلمين يحاربون اعداءهم متمسكين بعقيدتهم، متبعين تعاليمها في الجهاد، مبتغين رضا الله وثوابه، وقد كانوا يجاهدون لتحرير بيت المقدس، وغيره من بلاد المسلمين التي احتلها العدو الصليبي، وكانوا يرون في الجهاد: «دينا وحتماً واجباً، فلا يحتاج إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يتمنعون، ويُزجرون ولا ينزجرون»[2].

ومن مظاهر عنايته بالجيش أنه «جعل كأساً مخصوصة تسمى (كأس الفتوة)، وتوزع هذه الكأس على كل من ينتظم في سلك الفتيان، ويعرف من الشبان الشجعان، وهذه الكأس كانت عبارة عن إناء جميل أنيق»[3].

وعني صلاح الدين بالعتاد الحربي، والمؤن التي كانت جيوشه تزود بها. كما عنى بالأسرى المسلمين، وكان في عهده ديوان لهم، وعني بالبريد، وبالجواسيس لاستطلاع أخبار العدو[4].

= ١٠٦، نفح الطيب ٢/٣٨٣، الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٣/٩٣، ٢١٥.

(١) انظر: الروضتين ١/٢٩٦، صبح الأعشى ٤/١١ ـ ١٦، صلاح الدين ـ جب/ ٩٧، ١٢٨، ١٥٦، ١٥٧، الحرب والسلام/ ٢، ٢٩، ٣٢، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين/ ١١٩، ١٢٠، صلاح الدين والصليبيون/ ١٠٨ ـ ١١٢، سياسة صلاح الدين/ ٢٤١.

(٢) مفرج الكروب ٢/١٢، الكامل ١١/٥٤٧.

(٣) انظر: الحرب والسلام/ ٤٨.

(٤) انظر: قوانين الدواوين/ ٣٥٤، الروضتين ١/٢٠٧، ٢/٦، ٨٠، ٢٨٥، نهاية الأرب ٨/٢٨٣، صبح الأعشى ٤/١١، سياسة صلاح الدين/ ٣٦٠، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين/ ٢٥٩ ـ ٣١٨، صلاح الدين والصليبيون/ ١٢٠ ـ ١٢٧، صلاح الدين ـ جب/ ١٧٦، ١٧٧، دراسات في حضارة =

وكـانت جيوش صلاح الـدين تتكون من الفرقة الأسدية، نسبة إلى اسد الدين شيركوه، والفرقة الصلاحية، نسبة إلى صلاح الدين، ومن فرقه الأخرى فرقة تقي الدين عمر، ابن أخي صلاح الدين، والفرق العسكرية الشامية في دمشق وحلب، والفرق العسكرية العراقية في الموصل، والجزيرة. وكانت هناك قوات أخـرى من العـرب مثـل بني منقـذ في شيزر، والتـركمـان، والأكراد، والمتـطوعـون، والمشـاة. وعني صلاح الـدين بالـطلائع أو اليزك، كما عني بالكمائن، والغارات الليلية، والحرب الخاطفة والمباغتة[1].

لقـد حققت تلك الجيوش الإسـلامية الانتصـارات، وفتحت الفتـوح العـظيمـة، وأثـارت الـرعب في نفوس الأعداء، وقضت عليهم، وقد وصفها الشعراء بأنها «جنود الرعب» كما يبدو في قول الشاعر عبدالمنعم الجلياني، من قصيدته القدسية الكبرى[2]:

وأعْـدى جنـود الـرُّعب يردي عداته ... وسـلم جمـيع الـمـسلمين مُجَنَّـدا
ومن عجبٍ خمسـونَ ألف مقـاتـل ... سبتهم جيوشٌ ليس فيهـا مَنْ ارتدى

وقول ابن جبير مصوراً تلك الجيوش المنصورة، وحاثاً صلاح الدين على الجهاد[3]:

جنـودُك بالـرُّعْـب منـصـورةٌ ... فنـاجـزْ متـى شئـت أو صابـر
فكـلهـمُ غارقٌ هالـكٌ ... بتـيار عسـكـرك الـزاخـر

وقول فتيان الشاغوري مصوراً تلك الجيوش قوية تتضاءل أمامها الجيوش

= الإسلام/ ١١٠، ١١١، الحرب والسلام/ ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٩، ٨٣ ـ ٨٦.

(١) انـظر: الروضتين ١/١٤٣ ـ ١٨٦، مفرج الكروب ٢/٤٠٠، السلوك ١/١٥٠، صلاح الدين ـ جب/ ١٥٥، ١٦٥ ـ ١٧١، دراسـات في حضارة الإسلام/ ٩٧، ٩٨، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧ ـ ١٠٩، الحرب والسلام/ ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٨، جيش مصر في أيام صلاح الدين/ ٧، ١٣، ١٤، ١٥، ٢٠، ٢٤، ٢٥، ٢٦، صلاح الدين والصليبيون/ ١١٣ ـ ١٢٠، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين/ ١٥٣ ـ ١٦١.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١١٨.

(٣) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٥٩٩، رحلة العبدري/ ٩٤، كتاب الروضتين ٢/١٠٦.

الأخرى، وهي التي ترفع راياته صفراً، وتصيّرها حمراً في ساحات الوغى، كما يبدو في قوله[1]:

يغـزو الملوكَ الـرُّعبُ قبـل مسيره ... في عسكـر أفتِـكْ به من عسكـرِ
هو كاسـرٌ كسـرى ومُتبـعُ تُبَّـع ... ذُلاً أحـاط به وقـاسِـرُ قيصـرِ
فلجيشـه ولـعـزمـه متضـائِـلٌ ... جيشُ الهِـرَقْـل وعَـزْمـةُ الإسكندرِ
رايـاتُـه صُفـراً تَرِدْنَ وتَـنـثـنـي ... حُمْـراً تمـجُّ نجيعَ آلِ الأصفـرِ

ومثـل هذا قول ابن السـاعـاتي في قصيدة قدسية قالهـا عند فتح البيت المقدس، في رجب من سنة ٥٨٣ هـ[2].

فَقُـلْ للحسـام اصمتْ أمـام جيوشه ... فغيرُ مُجـابٍ إنْ دَعَـا منهم كَلْمـا

ويصورهم ابن المجاور جنود الله، ويشيد بهم في شجاعتهم، واصطفائهم للجهاد في سبيل دينهم، والدفاع عن حياض بلاد المسلمين، وتخليصها من الأعداء المحتلين، كما يبدو في قوله من قصيدة أرسلها إلى صلاح الدين من مصر، ويذكر العماد أنه عرضها على السلطان في بيت المقدس، يقول[3]:

جاءتْ جنـودُ الله تطلبُ ثارهـا ... وصـدورهـا بل عن قليل تشـتفي
فانهضْ بها وتَقـاضَ حقَّـك مُوقِنـاً ... إنّ الإلـه بمـا تُؤمِّـلُه حَفـيّ
هم فتيةُ الأتـراك كلّ مُجَـفْـجَـف ... يَغشى الكـريهـةَ فوقَ كُلِّ مُجَفْجَف
قومٌ يخـوضـون الحِمـامَ شجـاعـةً ... لا ينـظرون إلـيه من طَرَفٍ خَفـي
إنْ صَبَّحـو الأعـداءَ في أوطـانهم ... تركـوا ديارهُـمُ كقـاع صفـصـف
أنـتَ اصـطفـيتـهمُ لنصـرة ديننـا ... لله دَرُّ الـمـصـطَفَـى والمُصْـطفي

ويصور الجويني جند السماء مشاركين جند الأرض في الجهاد لاعلاء شأن دين الله، ورفع شعائره، كما يبدو في قوله من قصيدة أثبتها العماد الأصفهاني في الفتح القدسي[4]:

---

(١) ديوان فيان الشاعوري ١٤١.

(٢) ديوان ابن الساعاتي/ ٣٨٥

(٣، ٤) كتاب الروضتين ٢/ ١٠٤.

حُنْـدُ السمَّـاءِ لهـذا المُلْك أعـوانُ مَنْ شكَّ فيهمْ فهـذا الفتـحُ بُرْهـانُ

ومثل ذلك قول العماد الأصفهاني، من قصيدة قدسية يهنىء بها السلطان صلاح الدين بالفتح القدسي، وهو مخيم عليه[1]:

جُنـودُك أمـلاكُ السـمـاءِ وظنَّهمْ عِداتُـكِ جنَّ الأرض في الفتك لا الإنْسا

إلى أن يقول في القصيدة نفسها:

أقـامتْ بغـاب السـاحلين جنـودُكُمْ وقـد طردتْ عنـه ذئـابهم الـطُّلْسـا

وقول ابن سناء الملك من قصيدة يهنىء فيها صلاح الدين بكسر الفرنج، وتحرير بلاد الشام في سنة ٥٨٣ هـ[2]:

مَلِك جُنـدُه ملائـكـة الـلّـ ـه فُرادى جَاءَتْ إلـيه ومَـثْـنَـى

★ ★ ★

ويتحدث الشعراء عن صنوف الإسلحة التي استخدمتها تلك الجيوش الإسلامية في فتوحها.

يصور العماد الأصفهاني أثر الرقاق القاطعة، فهي التي بدلت ما كان العدو يتصف به من الخشونة والقسوة. ويصور أثر الرماح الردينية والخطية، كما يبدو في قوله مخاطباً صلاح الدين، مهنئاً إياه وهو مخيم في القدس[3]:

أتَـوْا شُكُسَ الأخـلاق خُشنـاً فَلَيَّنـتْ

حدودُ الـرقـاق الخُشن أخـلاقهـا الشُّكْسا

ويبـدو مثل ذلك في قول ابن الساعاتي، من قدسية قالها عند فتح بيت المقدس. ويصورها تضيء الليل البيهم نهارا، كما يصور بكاءها ينشر الهدى في البيت العتيق والمسجد النبوي، كما يبدو في قوله[4]:

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣١، كتاب الروضتين ٢/١٠١، عقد الجمان للعيني ٢٠/ حوادث سنة ٥٨٣ هـ، شفاء القلوب/ ١٥٠، معجم الأدباء ١٩/٢٤.

(٢) ديوان ابن سناء الملك/ ٨١٥.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/٨٣.

(٤) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٦، ٣٨٧.

وشِمْتَ سيوفاً تنهبُ الليلَ وَقَدَةً فكلُّ عيانٍ ظنّها النارَ والفَحما
اذا عقمتْ سودُ المنايا قَرعْتَهَا ببيض ذكور تُولدُ المحِنَ العُقما
تَبسَّمُ وفي وقتِ الفراقِ فإنْ يكنْ لِقيً ووغىً فاضت مدامعُها سُجما

وقوله[1]:

هذي سيوفُك مُحْرِماتٌ دونه لبكائهن تبسَّمَتْ حُجراتُهُ

ويصور العماد السيف طاهراً يحسو دم القائد الصليبي أرناط لاتصافه بالغدر، كما يبدو في قوله[2]:

حَسَا دَمَهُ ماضي الغِرار لغَدْره وما كانَ لولا غَدْرُهُ دَمُهُ يُحسَى
فللّه ما أهدى يداً فتكتْ به وأطهرَ سيفا مُعدماً رجسه النجسا
نَسَفْتَ به رأسَ (البرنس) بضربةٍ فأشْبهَ راسي رأسه العِهْنَ والبُرسا
تَبوَّغَ في أوْداجه دمُ بغيه فصالَ عليه السيفُ يلحسُهُ لحْسَا

وفي سبيل تحرير ديار الإسلام، وعلى رأسها بيت المقدس، عُني صلاح الدين بالأسطول، وأفرد له ديواناً خاصاً عرف بديوان الأسطول[3].

★ ★ ★

وتدعو الأشعار القدسيات إلى تحرير الساحل كما يبدو في قول ابن الساعاتي[4]:

فألمِمْ بالسواحل فهي صورٌ إليك وألحق الهامَ المتُونا

وقوله[5]:

وما السواحلُ إلا كالفرات إذا وافى فإنْ لم تُحطْ علماً به فَسَلِ
فلا تُضِعهُ فما الدّينُ الحنيفُ على خَلْقٍ سواك من الدنيا بمتكِّلِ

ويصور عبدالمنعم الجلياني بعض أبناء صلاح الدين قد جازوا البحر

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤١١.
(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٥، كتاب الروضتين ٢/٨٣.
(٣) انظر: قوانين الدواوين/ ٣٣٩، الخطط المقريزية ٢/١٩٤، السلوك ١/٣٣٩، صلاح الدين ـ جب/ ١٥٨، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين/ ٣٤١ ـ ٣٥٠.
(٤) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٧، كتاب الروضتين ٢/٨٥، مفرج الكروب ٢/٢٠٠.
(٥) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٤.

للجهاد في سبيل الله، والإغارة على أعداء المسلمين، كما يبدو في قوله من قصيدة أنشأها في سنة ٥٨٢ هـ، وحضر بين يدي السلطان صلاح الدين[١]:

وجـاز بعضُ بنيه البحـرَ تجفـلُ من غاراتــهِ الـرومُ والصقـلابُ والـلّانُ

ويصور الجلياني نفسه الأساطيل الإسلامية تغزو صقلية، كما يبدو في قوله[٢]:

تغــزو أســاطـيلنــا منهــا صقليةً فَتُـذْعَـرُ الـرومُ والصقـلابُ والخَـزَرُ

★★★

ومن ناحية أخـرى، فقد عمل صلاح الدين جاهداً للاستيلاء على قلاع العدو الصليبي، وتصيير بعضها معقلاً حصيناً، وهدم بعضها الآخر، ومن ذلك أن المسلمين أخذوا ثغر أيلة (العقبة)، وصيروها معقلاً للجهاد، بعد أن كانت تهدد الحرمين، واليمن، كما جاء في كتاب فاضلي أنشأه في سنة ٥٧٠ هـ[٣].

ومن ذلك أيضاً أن العدو الصليبي كان قد انتهز الفرصة في سنة ٥٧٤ هـ، وبنوا حصناً على مخاضة بيت الأحزان للداوية. و«كان على المسلمين منه ضرر عظيم»، وكان العدو الصليبي يقطع الطرق على قوافل المسلمين، وإزاء ذلك كتب صلاح الدين إلى الفرنج مطالباً بهدم الحصن، فطلبوا أن يعطيهم ما غرموه في بناء الحصن، ولكنه أغار عليهم، وعاد بالأسرى والغنائم، ثم خربه في ربيع الأول من سنة ٥٧٥ هـ[٤].

وتردد صدى تخريب هذا الحصن في الشعر، فقد هنأ الشعراء السلطان صلاح الدين بالنصر في حصن بيت الأحزان، ومن ذلك قصيدة لابن الساعاتي، أشاد فيها بالسلطان، وتغنى بصنيعه، وخص الحصن بالحديث، يقول[٥]:

وقفتَ على حصن المخـاض وإنـه لمــوقــف حقٍ لا يوازيه موقــف

---

(١) انظر: الروضتين ٢/١١٦.

(٢) نفسه ٢/١١٧.

(٣) انظر: نفسه ١/٢٤٢.

(٤) انظر: نفسه ٢/٦، ٨، ١١ ـ ١٤.

(٥) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٩.

إلى أن يقول:

وما رجعت أعلامك الصفر ساعةً إلى أن غدتْ أكبادها السود ترجف
أيسكنُ أوطان النبيين عصبةً تمينُ لدى أيمانها وهي تحلف
نصحتكمُ والنُّصحُ في الدين واجبٌ ذَروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

★★★

وكان صلاح الدين يحرص، في سياسته العسكرية، على تهيئة أفضل الظروف العسكرية لإحراز النصر، ففي معركة حطين مثلاً، تمكن صلاح الدين من وضع أعدائه في ظروف غير ملائمة، حيث أخرجهم من صفورية المشهورة بغزارة مياهها، ومراعيها، وموادها الغذائية، وقد أصبحوا محاصرين بعيدين عن المياه[1] وقيل إنه أحرز النصر «للخطة العسكرية الجيدة، والسياسة الحكيمة التي اتبعها في إعداده للمعركة، ومشاركته الفعلية فيها، فقد أحسن اختيار أرض المعركة، وزمن وقوعها». وحرم العدو من الماء. يضاف إلى هذا، جيش المسلمين الموحد، وقيادة صلاح الدين التي كانت ذات دور حاسم في إحراز النصر[2].

وتبدو هذه السياسة العسكرية جلية في قصده إلى تحرير المدن الساحلية قبل التوجه إلى تحرير بيت المقدس، وذلك ليحرم أعداءه من قواعدهم البحرية، فلا تصل إليهم الإمدادات من أوروبا، ويصبحون محصورين داخل بلاد الشام. ولم يتوجه إلى تحرير بيت المقدس إلا بعد أن تمكن من تحطيم قوى العدو العسكرية[3].

وتجدر الإشارة هنا إلى سرعة صلاح الدين في تحرير بلاد المسلمين بعد

(١) انظر: النوادر السلطانية/ ٩٦، ٩٧، الروضتين ٢/٧٦، الفتح القدسي/ ١٢ ـ ١٤، مفرج الكروب ٢/١٨٩ ـ ١٩٤، زبدة الحلب ٣/٩٣ ـ ٩٥، الكامل ١١/٥٣٦.

(٢) انظر: الروضتين ٢/٧٦، سنا البرق الشامي ١/٢١٠، ٢١١، صلاح الدين ـ جب/ ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٩٠، دراسات في حضارة الإسلام/ ١٣١، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/٧٣٥، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، شعلة الإسلام/ ١١١، الحركة الصليبية ٢/٧٧٣، ٧٧٦، سياسة صلاح الدين/ ٢٩٤، ٣٥٩.

(٣) انظر: الحركة الصليبية ٢/٨١٣، سياسة صلاح الدين/ ٢٩٨، ٣٠٥.

معركة حطين، فقد كان يتبع أسلوب الحرب الخاطفة المباغتة. وقد اعترف له أعداؤه بأنه كان يقاتل ليل نهار، ولم يدع لعدوه وقتاً للأكل والراحة[1].

★ ★ ★

وانتهز صلاح الدين كل فرصة للعمل من أجل إضعاف العدو الصليبي، ففي حوادث أواخر سنة ٥٧٤ هـ مثلاً، ذُكر أنه عندما كان في بانياس، كان يضرم النيران عليهم، فيقضي على محصولاتهم. وذُكر أنه كان يركب كل يوم «بحجة الصيد، وينزل على النهر، ويجرد فرسان الجلاد والقهر، ويسير قبائل العرب إلى بلد صيدا، وبيروت، حتى يحصدوا غلات العدو»، ولم يكن يبرح مكانه إلى أن يعودوا بجمالهم وأحمالها[2].

وفعل صلاح الدين مثل ذلك، في أوائل سنة ٥٧٥ هـ، وكان ما زال نازلاً ببانياس، «فأجمع رأيه مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكفار ديارهم، ويستوعبوا ما بقي في أيديهم من الغلات في يوم واحد»[3].

وفي معركة حطين، قطع المسلمون طريق ورود الماء على العدو الصليبي، فجعلوا بحيرة طبرية وراء عساكرهم[4].

وهكذا كان صلاح الدين يعمل للاستفادة من إلحاق الضرر الاقتصادي، وكان يعمل على إحكام الحصار الاقتصادي على مواردهم البرية والبحرية[5].

★ ★ ★

وكان صلاح الدين صاحب مواقف سياسية تدل على بعد النظر، فقد حاول الاستفادة من التناقضات التي كانت تبرز بين قادة الصليبيين، ومن ذلك أنه عندما اختلف القائد الصليبي في طرابلس مع الصليبيين الآخرين، حول عرش إمارة طرابلس، كتب إليه صلاح الدين، وأفرج عن فرسانه الذين كانوا في الأسر

(١) انظر: شعلة الإسلام/ ١٥٦، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧.

(٢، ٣، ٤) كتاب الروضتين ٢/٨، ٧٧.

(٥) جيش مصر في أيام صلاح الدين ٨١ ـ ٨٣.

عند المسلمين، وتحسنت العلاقات بين الطرفين، مما أدى إلى انقسامات بين الصليبيين. ويعد ابن الأثير هذا العمل من أعظم الأسباب الموجبة لفتح البلاد التي كانوا يحتلونها، واستنقاذ بيت المقدس منهم[1].

وعمل صلاح الدين على عزل الفرنجة في بلاد الشام، إذ استخدم نهجاً دبلوماسياً، وعمل على إقامة علاقات سلام مع خصومه الخارجين قبل افتتاح حملته الحاسمة، كما يذكر جب في هذا المجال[2].

وحاول صلاح الدين جهده اجتذاب تجارة بيزا، وجنوى، والبندقية، إلى مصر، وقد كانت تلك المصالح التجارية ذات دور كبير في الحفاظ على الدولة الصليبية في المشرق الإسلامي، كما ذكر (جب) أيضاً[3]. ويذكر أن أحد الرحالة أعاد تخليص بيت المقدس من أيدي الصليبيين إلى «المدن التجارية الايطالية التي انهمكت في البحث عن الإرباح والسلع دون الاهتمام بمصالح الصليبيين ومملكتهم في بيت المقدس» كما يقول[4].

لقد جمعت المدن التجارية الايطالية بين دورها في الحروب، ودورها في نقل السلع، والمتاجر، والحجاج، والمؤن والأسلحة إلى الاراضي المقدسة[5]، ولكن النظر إلى هذا الاهتمام التجاري على أنه العامل الوحيد الذي كان سبباً في تحرير المسلمين بيت المقدس، غير دقيق.

ولعل ما تحدث عنه هذا الرحالة يعد عاملاً واحداً من عوامل عديدة، ولعله يريد أن يقلل من شأن العوامل الأخرى، وعلى رأسها القوى الإسلامية التي وحدها صلاح الدين، وقادها إلى إحراز النصر.

---

(١) الكامل ١١/٥٢٦، ٥٢٧.

(٢، ٣) صلاح الدين/ ١٤٦.

(٤) انظر: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى/ ٩، ١٤٣، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣.

(٥) انظر: نفسه/ ١٣١.

جاء في رسالة للقاضي الفاضل، أرسلت إلى الديوان العزيز ببغداد، على لسان صلاح الدين، في سنة ٥٧٠ هـ، أن جيوش «البنادقة، والبياشنة، والجنوية» كانوا تارة غزاة، وكانوا تارة اخرى «سفاراً يحتكمون على الإسلام في الاموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قُررت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة على ما نريد»[١].

المقتدي بالسلف

كان صلاح الدين شبيهاً بالخلفاء المسلمين الأولين، مقتدياً بالسلف الصالح. يقول بهاء الدين بن شداد متحدثاً عن يوم وفاته: «وكان يوماً لم يُصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فُقد الخلفاء الراشدون»[٢]. ويصوره أبوشامة المقدسي بعمر، يقول: «رأيته هو ونور الدين الشهيد في المتأخرين كالعمرين في المتقدمين، فلا أبعد أنهما من الله حجة على الملوك المتأخرين»[٣].

وكان صلاح الدين تقياً، حريصاً على إظهار شعار الشرع. وكان يحافظ على الصلوات في جماعة، كما كان يداوم على قراءة القرآن وحفظه[٤].

وأنشأ صلاح الدين ديوان الزكاة، وألغى المكوس والضرائب[٥].

إن الواجب على من يقود حركة الجهاد، يقتضي أن تكون تلك الحركة في سبيل الله، وأن تكون مراعية لشريعة الإسلام[٦].

---

(١) انظر: الروضتين ١/٢٤٣، صبح الأعشى ١٣/٨١ ـ ٩٠ (يذكر نص الرسالة)، السلوك ١/١٧٥، صلاح الدين ـ جب/ ١٤٦، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى/ ١٩١.

(٢) النوادر السلطانية/ ٢٤٦.

(٣) انظر: شفاء القلوب/ ٦٠، ٦١.

(٤) انظر: النوادر السلطانية/ ٧، ١٠، الروضتين ١/٢٦٩، ٢/٦٤، ٢١٨، ٢١٩، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١١٢، ١١٣، ١١٤، شفاء القلوب/ ٦٢، النجوم الزاهرة ٦/٩، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٤٠، البداية والنهاية ١٢/٢٩٦، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/١٤٨.

(٥) خطط المقريزي ١/١٠٨. وانظر: قوانين الدواوين/ ٣١٠ ـ ٣١٦.

(٦) انظر: صلاح الدين ـ جب/ ١٢٤.

ومن مظاهـر تقـواه أنه كان زاهداً في حياته، وهو في ذلك شبيه بالسلف الصالح. وقد وصفه رسول جاء إليه من حلب، فقال: «رأيته في خيمة صغيرة، على بساط لطيف، وتحته سجادة، وبين يديه مصحف، وهو مستقبل القبلة، وإلى جانبه زرديته، وسيفه بين يديه، وقوسه وتُرْكشه[1] معلق في عود الخيمة، فلما رأيته وقع في خاطري أنه منصور، لأني قد فارقت أصحابي، وهم على طنافس من الحرير»[2].

ويُذكر أنه في سنة ٥٨٤ هـ، بعد فتح حصن كوكب، مر بدمشق، وهو سائر إلى أنطرطوس لفتحها، وقد وجد متولي الديوان (الصفي بن القابض)، قد أعد له داراً جميلة فلما رآها قال: ما يصنع بالدار من يتوقع الموت[3]، وكان صلاح الـدين غير مهتم بالمال، فقد ذكر أنه «ملك ما ملك، ومات»، ولم يترك في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، ومن الذهب الا جراماً واحداً صورياً، وهكذا لم يخلف ملكاً، ولا داراً، ولا عقاراً، ولا بستاناً، ولا قرية، ولا مزرعة، وذكر أنه كان يقول: «إن بقيت الديار لنا، فلنا كلُّ ما فيها، وإن ضاعت منا ضاع ما يملكه كل فرد، واستولى عليه العدو»[4].

ولم يحتفظ صلاح الـدين لنفسـه بشيء من الغنـائم، وبهذا استطاع أن يسـوس رجـالـه ويقـودهم، ويقربهم إليه، ويكون لهم قدوةً ومثالاً. لقد كان أصحابه «كأنما هم على قلب رجل واحد، محبة فيه، واعتقاداً، وطواعية»، كما يقول السبكي[5].

وكان صلاح الدين بسيطاً في لباسه، «لا يلبس إلا ما يحل لبسه كالكتان،

---

(١) التركش: الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب.

(انظر: السلوك ١/٢٧١، جيش مصر في أيام صلاح الدين/ ٢٩.

(٢) انظر: مرآة الزمان ٨/٣٣٣، شفاء القلوب/ ٩٠.

(٣) مفرج الكروب ٢/٢٥٤.

(٤) انظر: النوادر السلطانية/ ١٧، الفتح القدسي/ ٦٢٩، الروضتين ٢/٢١٧، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١١٣، ١٢٢، صلاح الدين ـ جب/ ١٩٩.

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٤٠.

والقطن، والصوف»[1].

وتحدث المؤرخون والكتاب الغربيون عن زهده، فقد ذكر (لين بول) بأنه كان قد «بالغ في زهده، وورعه، وصرف نفسه عن رغد العيش، وتجافى عن ملذات الحياة، وضيق على نفسه في جميع شؤونه ليكون قدوة لرفاقه»[2].

ويذكر (جب) أن قادته، ورعاياه، كانوا يدهشون بسبب «عزوفه التام عن المقتنيات الشخصية»، واعتباره الغنى شيئاً يستخدم للجهاد، أو منحة لآخرين، وكانت هذه الحقيقة مسجلة بوضوح لدى الصليبيين[3].

ويتردد صدى هذه التقوى، وهذا الزهد، في الشعر، ومنه الشعر الذي قيل حول الفتح القدسي، ومن ذلك ما جاء في رثاء العماد الأصفهاني للسلطان صلاح الدين، فقد تحدث عن تقواه وطاعته لربه، كما يبدو في قوله[4]:

أينَ الـذي كانـتْ له طاعـاتُـنـا مبـذولـةً ولـربِّـه طاعـاتُـهُ
بالله أينَ الـنـاصـرُ الملكُ الـذي لله خالـصـةً صَفَـتْ نيّاتُـهُ

وهو الذي لم يثق بالدنيا العاجلة، كما يبدو في قول العماد[5]:

طلبَ الـبـقـاءَ لملكـه في آجـلٍ إذْ لم يثقْ ببقـاءِ مُلْكِ العـاجـلِ

وكان يعمل لإرضاء ربه، كما يقول ابن جبير مخاطباً صلاح الدين[6]:

وتـسـهـرُ لَيْلَكَ في حقٍ مَنْ سَيُرضيك في جَفنِكِ الساهـرِ

ويصور الجلياني زهده وتقواه، في أبيات يمدحه بها عند قفوله من غزاة غزة، في سنة ٥٦٧ هـ، كما يبدو في قوله[7]:

(١) انظر: الروضتين ٢/٢١٧، النجوم الزاهرة ٦/٨، شفاء القلوب/ ٦١.

(٢) انظر: صلاح الدين ـ الندوي/ ٣٠.

(٣) صلاح الدين/ ١٢٥.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٨٧، كتاب الروضتين ٢/٢١٥، مرآة الزمان ٨/٤٣١، النجوم الزاهرة ٦/٦٠، شفاء القلوب/ ١٨١، الأنس الجليل ١/٣٩٥.

(٥) ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٤٠، كتاب الروضتين ٢/٢١٧.

(٦) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثاني/ ٥٩٩، رحلة العبدري/ ٩٥، كتاب الروضتين ٢/١٠٦.

(٧) كتاب الروضتين ٢/١١٥، ١١٦.

أبـا المـظَفَّرِ فاهْنـأ حَظّ مُنتخبٍ أُخـرى الـزمـانِ لدينٍ كادَ يَنبتِـرُ
زهـدتَ فيمـا سبى الأمـلاكَ مُنكَدِراً علمـاً بُمـلك نعـيم ما به كَدَرُ
وطِبْتَ نفسـاً عن الـدنيا وزُخـرفِهـا وجئتَ تقـدم حيثُ الهـوْلُ والخـطرُ

ويخاطبه نجم الدين بن المجاور قائلاً[1]:

فخـذ الخـراجَ من البسيطةِ كُلِّهـا واسـتـأد فرضـي جزيةٍ ومـوظـفِ
واقـبضْ على الـدنيا بكفِ زهـادةٍ وابـسطْ لرحمتهـا جنـاحَ تعـطفِ

★★★

وكان صلاح الدين وقوراً، متواضعاً لم يتكبر على أحد من أصحابه. وكان يحسن معـاملة مجـالسيه. وكـان قريبـاً من النـاس، رحيماً، بهم، متسامحاً يستجيب للصفح والعفو[2]. وكان يتحلى بالتسامح والوفاء مع أهل البلاد التي كان يحـررهـا، ويعـاملهم معـاملة حسنـة[3]. وكـان وفياً يحافظ على العهود والمواثيق[4]، وخير مثال يذكر في هذا المجال معاملته العدو الفرنجي بعد الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ[5].

ويتردد صدى هذا في الشعر الذي قيل في الفتح القدسي، ومن ذلك ما جاء في قصيدة لابن الساعاتي، يمدح فيها السلطان صلاح الدين، عند فتحه البيت المقدس، وفيها يشيد به في عفوه، وإحسانه، وصفحه، كما يبدو في قوله[6]:

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٤.

(٢) انظر: النوادر السلطانية/ ٢٨ ـ ٣١، ٣٤، الروضتين ٢/٢٢٣، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٣٦، وفيات الأعيان ٧/٢٠٧، الكامل ١٢/٩٧، النجوم الزاهرة ٦/٨، ٩، ١١، شفاء القلوب/ ٦٤، ٦٥، ٩٢، ١١٥، مضمار الحقائق/ ١٣٧، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/١٤٨.

(٣) النوادر السلطانية/ ٣١.

(٤) النجوم الزاهرة ٦/٣٧، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٤٨.

(٥) انظر: الروضتين ٢/٩٢، ٩٥، ٩٦، وفيات الأعيان ٧/١٨٨، الكامل ١١/٥٤٩ ـ ٥٥١، شفاء القلوب/ ١٢٨، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/٧٥٢، ٧٥٣، شعلة الإسلام/ ١٢٣، الإسلام والحضارة العربية/ ٢٩٧، ٢٩٨، تاريخ فلسطين القديم/ ١٧٥، الحركة الصليبية ٢/٧٨٠، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٩، صلاح الدين ـ جب/ ١٤٩، سياسة صلاح الدين/ ٣٠٩.

(٦) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٧.

له عَيْنُ حُسنى لا يُلِمُّ بهـا الكـرى وأُذْنُ سَمـاحٍ لم تزل تسمـعُ الوهما
أجـلهُـهُـم نَفْـسـاً وأشـرفُ همـةً وألـينـهُـم خُلقـاً وأصلبُهم عَجمـا
لإحسـانـه برهـانُ عيسى بن مريمٍ يقينـاً فكم أحيا وكم أنـطقَ البُكمـا

ويصـوره العمـاد الأصفهـاني في إحسانه، كما يبدو في قوله من قصيدة قدسية، هنأ بها السلطان بفتح بيت المقدس، وهو مخيم عليه[1]:

سَجيتُـه الحُسنى وشيمتُـه الـرضى وبَـطْشتُـه الكُبـرى، وعزمته القعْسَى

ويتحدث العماد عن مناقبه، في رثائـه له، فيشيد به في سماحته، كما يبدو في قوله[2]:

دُفِنَ السمـاحُ فليس تُنشَـرُ بعـدمـا أوْدى إلـى يوم النُّـشـورِ رُفـاتُـه

ويصـور فتيان الشـاغوري الممالك تبنى بفعال صلاح الدين من عدل، وإحسان، ومعروف، وغيرها من الفعال، كما تقدم، ويصور الشاغوري تواضع صلاح الدين فيقول[3]:

متـواضـعـاً لله جلَّ جلالُـهُ وبـك اضْـمحلَّتْ سَطْوةُ المتكبِّـرِ

وكان صلاح الدين صاحب مروءة، كريماً يعطي في حالتي السعة والضيق، ولم يترك في خزائنه شيئاً يذكر[4]

ويتـردد صدى كرمـه، وشهامته، ومروءته في الشعر الذي قيل في الفتح القدسي. ويفضل ابن الساعاتي صلاح الدين في جوده على الغيث الهون، كما يبدو في قوله[5]:

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣١، كتاب الروضتين ٢/١٠١.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٨٨، كتاب الروضتين ٢/٢١٥، الأنس الجليل ١/٣٩٥، شفاء القلوب/ ١٨٢.

(٣) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٧.

(٤) انظر: النوادر السلطانية/ ١٧، ٣١ ـ ٣٣، مفرج الكروب ٢/٢٤٢، الروضتين ٢/٢١٧، ٢٢٠، الكامل ١٢/٩٦، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٢٣، النجوم الزاهرة ٦/٥٢، شفاء القلوب/ ٦١، ٦٢، صلاح الدين ـ جب/ ١٢٥، ١٩٩، شعلة الإسلام/ ٧٣.

(٥) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٧.

إبـاءٌ كمـا أفنى العـدا أوجدَ الهدى وجـودٌ كمـا أحيا الغنى قَتَـلَ العُدمَا

ويفصل فتيان الشاغوري في الحديث عن كرمه، ويصوره بحراً في جوده، بل بحاراً، ويجمع الشاعر بين وصفه بالجود والشجاعة والفرات، كما يبدو في قوله[1]:

تَنْـهَـلُّ يُمْـنـاه بجـدواه فخَـمْـ ـسُ بنـانـه للخلق خمسـةُ أنْهـرِ
كالنيل في مصـرٍ وسيْحـون وجيْحـ ـون ودجـلة والـفـرات الأكـبـرِ
البحـرُ أنت لك السـواحـل باعثـاً سُحْب الحيا جوداً وقـاذف جوهـر
فَبم العُفـاةُ يُشبهـونـك في النَّـدى والبـأس حارتْ فكـرةُ الـمتفكـرِ
كمْ خازنٍ لك مثـلُ ألـفـيْ حاتـمٍ كَرَمـاً ومـمـلوك كألـفـي عَنتـرِ

ويصوره العماد الأصفهاني، في قصيدة قدسية أنشدها يوم فتح القدس، بأنه اكثر الناس كرماً، كما يبدو في قوله[2]:

قل للمـلـيكِ صلاحِ الـدين أكـرم مَنْ
يمشي على الأرضِ أو مَنْ يركبُ الفَرسا

وقوله[3]:

رأيتُ صلاحَ الـدّين أفضلَ مَنْ غدا وأشرفَ من أضحى، وأكرمَ من أمسى
وقيل لنـا في الارضِ سبعـةُ أبحـرٍ ولـسنـا نرى إلاّ أنـامله الخمسـا

★ ★ ★

وكان صلاح الدين عادلاً ناصراً للضعيف، وكان يجلس في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء، والقضاة، والعلماء[4]. وعني باختيار

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري / ١٩٢ ـ ١٩٤.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٢٨، نصرة الفترة / ٢٠٢.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني / ٢٠٠، كتاب الروضتين ٢/ ١، معجم الأدباء ١٩/ ٢٤، شفاء القلوب / ١٥٠، مفرج الكروب ٢٥، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(٤) انظر: الفاضل السلطانية / ١٣ ـ ١٤، الروضتين ٢/ ٢٥٢، ٢٦٩، ١٠/ ٢، ١٩، ٢١٩، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة / ١٩، مضمار الحقائق / ١٠٦، النجوم الزاهرة ٦/ ١٠، شفاء القلوب / ٦٠، ٦١، ٦٢، طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٣٤٧، ٣٦٨.

القضاة، وكان يعمل وفق أحكام القضاء، ويتمثل لأوامره ونواهيه. يذكر ابن جبير أنه قال لأحد المقربين إليه: «ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم. والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه متمثلة، إنما أنا عبد للشرع وشحنته، فالحق يقضي لك أو عليك»[1].

ويتردد صدى عدله في الشعر الذي قيل في الفتح القدسي، ومن ذلك ما يقوله الشاعر ابن الساعاتي، في قصيدة قدسية قالها عند فتح البيت المقدس، مشيداً بصلاح الدين في عدله[2]:

فللحق شمسٌ لا تغام ببـاطـلٍ ... وللعـدل فيه آية تنسـخ الـظُّلمـا
يعـزُّ على الأحـداث وطءُ بلاده ... فلو صدَّ حِبٌّ لم يجد عاشقٌ هَمّـا

ويصور الشاعر فتيان الشاغوري عدل صلاح الدين واحداً من المقومات التي تبنى بها الممالك، كما تقدم.

ويصوره العماد الأصفهاني عادلاً ناصراً للحق كما يبدو في قوله مخاطباً ابني صلاح الدين: الافضل، والعزيز، في مرثيته للسلطان[3]:

أبَـني صلاح الـدّين إنَّ أبـاكـم ... ما زال يأبـى ما الـكـرام أُبـاتُـهُ
لا تقـتـدوا إلّا بسـنّـة فضـلـه ... لتـطيبَ في مهـدِ النعيم سَنـاتُـهُ
وردوا موارد عدلـه وسـمـاحـه ... لتـردَّ عن نهـجِ الشَّمـاتِ شمـاتُـهُ

★★★

راعي المسلمين

عُني صلاح الدين بالمجتمع الإسلامي عناية كبيرة، ورعاه مدركاً أن تلك الرعـاية واجبة شرعياً. وواجبة لتهيئة المجتمع تهيئة حقيقية للوقوف في وجه العـدوان الصليبي. وكـان نبراسه في هذا كتاب الله، وسنة رسوله، وما رسمه مصـدرا التشـريع الإسلامي من مواقف واضحة ثابتة في هذا المجال. وكان يهتدي بما جرى عليه صحابة الرسول، وخلفاؤه الراشدون[4].

---

(١) رحلة ابن جبير/ ٢٩٨.
(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٧.
(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٩٢.
(٤) انظر: نور الدين ـ الرجل والتجربة/ ٩٣.

كان صلاح الدين راعياً للمسلمين، ودينهم، وأموالهم، ويبدو مثل ذلك متمثلاً في حديثه مع أخيه الملك العادل، وكان العادل قد طلب منه أن «يكتب له بمدينة حلب، ويجعله ككتاب البيع والشراء، فامتنع السلطان. وقال: إنما تكون حلب إقطاعاً». وقال صلاح الدين لأخيه: «أظننت أن البلاد تباع؟ أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين، ورعاة للدين. وحراس لأموالهم»[1]. ومن هذا يتضح كيف كان صلاح الدين ينظر إلى بلاد الإسلام، ووجوب رعايتها رعاية حقة. وكيف كان يعمل على حماية المسلمين وحقوقهم. كان صلاح الدين حريصاً على رعاية الفقراء والمساكين[2]، وكان يوصي بتقوى الله، واتباع أوامر الشرع، واجتناب نواهيه، والعمل على استمالة الرعية، والابتعاد عن سفك الدماء. ويبدو مثل ذلك جلياً في وصية كتبها لابنه الملك الظاهر في دمشق، في سنة ٥٨٨ هـ، يقول: «أوصيك بتقوى الله، فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها، والتقلدلها، فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية، والنظر في أحوالهم، فأنت أميني، وأمين الله عليهم»[3].

ورعى صلاح الدين المسلمين اقتصادياً، فقد أسقط المكوس الديوانية في مصر، بعد توليته الوزارة، وأعلن حرية التجارة، في منشور قرىء من فوق المنابر[4]. وكان أول عمل قام به في دمشق، هو إزالة المكوس اتباعاً لأمر الشرع، كما يبدو في كتاب فاضلي، في سنة ٥٧٠ هـ يقول فيه: «فشرعنا في امتثال أمر الشرع برفعها، وإعفاء الأمة منها بوضعها»[5].

ويذكر العماد الأصفهاني أن السلطان أبطل المكوس الذي كان مفروضاً في

---

(١) انظر: الروضتين ٢/٥٢.

(٢) انظر: النوادر السلطانية/ ٨، ٣٤، الروضتين ٢/٦٥، ٦٦، ٢١٨، النجوم الزاهرة ٦/١١، شفاء القلوب/ ٦٢، ٦٥، صلاح الدين ـ جب/ ١٤٤، ١٩١.

(٣) انظر: زبدة الحلب ٣/١٢٣.

(٤) كتاب الروضتين ١/٢٠٥.

(٥) انظر: نفسه ٢/٢٣٦.

مكة على الحاج، في ٥٧١ هـ، و ٥٧٤ هـ. وكشف «عن حلب المظالم بعد فتحها، وأزال المكوس»، وقد أصدر كتاباً بذلك كتبه القاضي الفاضل، في سنة ٥٧٩ هـ[١]. ويُبين كتاب القاضي الفاضل، مدى حرص صلاح الدين على رعاية الأمة، كما يبدو في الكتاب الفاضلي: «وانتهى إلينا أن بمدينة حلب رسوماً استمرت الأيدي على تناولها، والألسنة على تداولها، وفيها بالرعاة إرفاق، وبالرعايا إضرار». وهو حريص كل الحرص على إبعاد الضرر عن الرعية، كما كان حريصاً على السير في طريق الشرع.ويتحدث في الكتاب الفاضلي، عن أنواع من الضرائب رأى أن «نضرب عنها في أيامنا، ونضرب عليها بأقلامنا، ونسلك ما هو أهدى سبيلا، ونقول ما هو أقوم قيلا، ونكره ما كره الله، ونحظر ما حظره الله». كما أصدر منشوراً لأهل الرقة كتبه القاضي الفاضل أيضاً، وورد فيه أن «يعفى خبر هذه الضرائب من الدواوين». ومما جاء في ذلك المنشور قول يتضمن نقداً سياسياً اجتماعياً لأولئك الذين كانوا ينحرفون عن طريق الشرع، وفيه: «إن أشقى الأمراء من سمن كيسه، وأهزل الخلق، وأبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس، وسماه الحق». وقد كان هذا دأبه، إذ اقتصر على الرسوم التي يبيحها الشرع[٢].

وعمل صلاح الدين على إنشاء المؤسسات الاجتماعية التي ترعى المسلمين في حياتهم، في مسكنهم، وملبسهم، ومأكلهم، ومشربهم. وصحتهم، وفكرهم، فقد أنشأ البيمارستانات، والمدارس والخوانق، والرباطات، والأسواق، والقناطر، والحمامات، والخانات، وغيرها.

ووقف الأوقاف على ما أنشأه من مؤسسات، وذلك لتسيير شؤونها الاجتماعية، والفكرية، وغير ذلك[٣].

شهدت مصر والشام نشاطاً فكرياً كبيراً في ظل السلطان صلاح الدين،

---

(١) انظر: الروضتين ١/٢٧٠، ٢/٣، ٤، ٤٧، سنا البرق الشامي/ ٣٠٤. مرآة الزمان ٨/٣٣٨، البداية والنهاية ١٢/٢٩٩.

(٢) كتاب الروضتين ٢/٤٧، ٦٩، البداية والنهاية ١٢/٣١٣، ٣١٤.

(٣) انظر: الروضتين ١/٢٦٩، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، المدارس في بيت المقدس.

وشمل ذلك النشاط الفكري مدينة بيت المقدس، وقد نالت مدينتنا المقدسة عناية خاصة في هذا المجال، في ظل صلاح الدين الأيوبي.

كان صلاح الـدين ذا عنـاية كبيرة بالعلم وأهله، وكـان يهتم بالحـديث والمحدثين، والفقه والفقهاء، والوعظ والوعاظ، والتصوف والمتصوفة، والشعر والشعراء، والكتابة والكُتّاب، والخطـابة والخطباء، وغيرهم من أرباب العلم والثقافة والفكر.

وكان صلاح الدين يحب العلماء ويقربهم، ويحسن إليهم، وكان شغوفاً بمجالسة خواصه من العقلاء وكان مجلسه لا يخلو من ذوي الفضل والنباهة، وكانوا «يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد، ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد، فتـارة في أحكـام شرعية، ومسائل فقهية، وآونة في صناعات شعرية، وألفاظ عربية، ومعان أدبية، ومرة في احاديث الأجواد، وشيم الأمجاد» كما يذكر العماد الأصفهاني[1].

وكـان صلاح الـدين يذاكر في الأدب والأشعار والفقه، وكان «يستحسن الأشعار الجيدة، ويرددها في مجالسه، حتى قيل إنه كان كثيراً ما ينشد» أشعاراً تعجبـه. ويذكر أنه كان شغوفاً بأشـعار أسامة بن منقذ. وكان يمنح الشعراء الجوائز القيمة[2].

كان صلاح الدين قد نشأ وترعرع في ظل الثقافة الإسلامية في بعلبك، ودمشق، ودرس القرآن، والحديث، والفقه. وكان يحب سماع القرآن، كما كان «شـديد الـرغبـة في سمـاع الحـديث. وكـان يتردد إلى الحافظ السلفي في الاسكنـدرية، وكـان يستمـع إلى دروس عبدالله بن أبي عصرون في الجامع الأموي، وقيل إنه كان يحفظ القرآن. وكان يحفظ كتاب «التنبيه» في الفقه،

(١) انظر: الروضتين ٢/٦٥، سنا البرق الشامي (ط بيروت) ١/٢٣٣ ـ ٢٣٤، وفيات الأعيان ٧/٢٠٧، شفاء القلوب/ ١٩٠.

(٢) انظر: كتاب الروضتين ١/٢٤، ٢٦٤، خريدة القصر ١/٧٨، وفيات الأعيان ٧/٢٠٧، ٢٠٨، النجوم الزاهرة ٦/٥٦، شفاء القلوب/ ١٩٠، ١٩١، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ٢٥، ٢٦.

وكتاب الحماسة في الشعر»[1].

يذكر العماد الأصفهاني أنه «عين لسماع الاحاديث النبوية ميقاتاً، وجمع به من أهل العلم والعلماء أشتاتاً، وقد هنأه القاضي الفاضل برحلته في سبيل العلم، وسماعه موطأ مالك، في رسالة كتبها إليه[2].

---

(١) انظر: النوادر السلطانية/ ٧، ٩، ١٠، كتاب الروضتين ١/٢٦٩، ٢/١٨، ٢٤ ـ ٢٥، ٢١٧، ٢١٩، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٤٠، ٣٤٧، ٣٤٨، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١١٤، البداية والنهاية ١٢/٣٠٨، شفاء القلوب/ ٦١، ٦٣، ٩٨، السلوك ١/٤٢ ـ ٤٣.

(٢) انظر: الروضتين ٢/٢١، ٢٤ ـ ٢٥.

صورة محتلي بيت المقدس

يصور الأدب العربي الذي قيل حول الفتح القدسي الفرنج الذين غزوا العالم الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين عدواً استعمارياً غازياً، قدم تحت شعار الصليب للقضاء على الإسلام والمسلمين، واحتلال بلادهم في مصر والشام، وهذا هو ما قام به آنذاك، وأنشأ مستعمرات وإمارات صليبية، وهي إمارة الرُّها، وإمارة إنطاكية وإمارة طرابلس، كما أنشأ مملكة بيت المقدس، وجعل مدينة بيت المقدس عاصمة له، وكانت تحدوه أهداف وغايات مختلفة، وهي أهداف وغايات سياسية، واقتصادية، واجتماعية ودينية.

ويصور الأدب العربي الذي قيل حول الفتح القدسي العدو الصليبي المحتل ناشراً الخراب والدمار، وسافكاً الدماء، وهاتكاً الاعراض، وناهباً وسالباً في بلاد المسلمين، وقد ارتكب المجازر في بيت المقدس، واصبحت خالية من سكانها المسلمين[1].

وقد عمل الفرنج على تغيير معالم بلاد المسلمين سياسياً، واقتصادياً، وحضارياً، وفكرياً، ودينياً، ويصور الشعر ذلك تصويراً مؤثراً مستنهضاً الهمم، فالأعداء الصليبيون الغازون يفسدون ويفتكون، ويقتلون، وينشرون ذلك كله في بلاد المسلمين، وهذه هي طبيعتهم كما يقول ابن الخياط الدمشقي مصوراً جيوش الفرنجة الذين غزوا بلاد المسلمين في الشام[2]:

بنو الشِّركِ لا ينكرون الفسادَ ... ولا يعرفون مع الجَورِ قَصدا
ولا يَرْدعون عن القتل نَفْساً ... ولا يتركون من الفَتْكِ جُهدا
فكَمْ من فتاةٍ بهم أصبحتْ ... تذُقُ من الخوف نحراً وخداً

---

(١) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٧، النجوم الزاهرة ٥/١٤٩، الأنس الجليل ١/٣٠٨، القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام/ ٢١، المفصل في تاريخ القدس/ ١٥٦ ـ ١٥٨، العرب والروم واللاتين/ ٢٦٥.

(٢) ديوان ابن الخياط الدمشقي/ ١٨٤، ١٨٥.

وانظر مثل ذلك في: كتاب الروضتين ٢/١٠٧، النجوم الزاهرة ٥/١٥١ ـ ١٥٢.

وأم عواتــق ما إن عَرَفْـ ـنَ حَرَّاً ولا ذُقْــن بَرْدا
تكــاد عليهــن من خيفــةٍ تذوبُ وتــتــلفُ حُزنــاً ووجــدا

ويصور القاضي أبوسعد الهروي (وقيل الأبيوردي) ما فعله العدو الغازي بالمسلمين في بيت المقدس من هوان، وقتل، وهتك أعراض، كما تقدم في الفصل الأول.

ولم يردع العدو الصليبي الغازي رادع عما فعله من افعال قبيحة منكرة دون مراعاة لمكانة بيت المقدس، وهي أعمال لا تقرها شريعة، كما تقدم في الفصل الأول أيضاً.

ويصور العماد الأصفهاني ما كان الفرسان الداوية قد قاموا به من تغييرات بالأقصى[1]. كما يصور ما كان الفرنج قد فعلوه بالصخرة المقدسة، فذكر أنهم كانوا قد غيروا رسومها، وبنوا عليها كنيسة ومذبحاً، وستروها بالأبنية، وزينوها بالصور والتماثيل[2].

★ ★ ★

ويصــور الأدب العـربي العـدو الغازي أهل كفر وشرك، ويظهر في هذا المجال الصراع في العقيدة جلياً بين المسلمين والفرنج الغزاة، وقد كانت هذه الحـروب حروبـاً دينية في بعض جوانبها، إذ هدف الفرنج إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، وبدا ذلك واضحاً من الخطاب الأول الذي أصدره البابا، موجها الغزاة إلى المشرق الإسلامي، فهم بنو الشرك كما يصورهم الشاعر ابن الخياط الـدمشقي كما تقدم، وهم الذين ألبسوا بيت المقدس ثياباً من الكفر باحتلالهم المدينة المقدسة، وقد بقيت كذلك إلى ان نزع صلاح الدين ذلك اللباس عنها، وألبسها تياب الإسلام والايمان[3].

---

(١) انظر: سنا البرق الشامي/ ٣١٤، الفتح القدسي/ ١٣٧، الروضتين ٢/١٠٧، ١٠٩.

(٢) انظر: سنا البرق الشامي/ ٣١٥، الفتح القدسي/ ١٤١، الروضتين ٢/١١٣.

(٣) انظر ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٢.

ويصور ابن سناء الملك كيف صمتت أصوات الكفر وأهله بعد النصر العظيم الذي أحرزه المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي، كما يبدو في قوله[1]:

واستحالتْ شقاشقُ الكفر صمتاً حين عادت تلك الشجاعة جبنا

ويصور العماد الأصفهاني ما كان أسد الدين شيركوه يبعثه في نفوس أهل الشرك، كما يبدو في قوله من قصيدة يهنىء بها أسد الدين لما استقل بالوزارة في مصر[2]:

في حَلْقِ ذي الشِّركِ من عدوى سطاك شجى

والقلبُ في شَجَنَ والنَّفسُ في شَجَب

ويصور ابن الساعاتي ما أحس به أهل الشرك بعد هزيمتهم أمام المسلمين بقيادة صلاح الدين، فيقول[3]:

ففي لَهَوات الشِّرْكِ أرْسلها شجىً وفي جبهة الايام غادرها وَسْمَا

ويصورهم العماد الأصفهاني عصبة للشرك، كما يبدو في قوله من قصيدة يمدح فيها تقي الدين عمر، في سنة ٥٨٢ هـ[4]:

إذا ما تقي الدين صالَ تساقَطَتْ لأقدامه من عُصبهِ الشِّرك أرؤُسُ

ويصور العماد كيف أمات صلاح الدين الشرك وأهله، وأحيا الهدى وأهله، وقمع طواغيت ذلك الشرك ورموزه، ونفاها من بيت المقدس، مثلما نفيت الأوثان من مكة بعد تحريره القدس[5].

---

(١) ديوان ابن سناء الملك/ ٨١٧، مفرج الكروب ٢/٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٩١.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٨٠، كتاب الروضتين ١/١٥٩، مفرج الكروب ١/١٦٦، تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ١/٤٥.

(٣) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٥.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٩، كتاب الروضتين ٢/٧١، ٧٢، سنا البرق الشامي/ ٢٨٢.

(٥) انظر ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٦.

وتبدو هذه الصورة جلية في النثر الفني الأدبي، فيما كتبه القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير، ومحيي الدين بن الزكي.

يصور القاضي الفاضل العدو الصليبي كافراً تقلص ظل رجائه وقد كان مبسوطاً قبل الفتح القدسي. ويصور ما آلت إليه بيوت الشرك وطوائفه، وهم اصحاب الشمال، إذ يبين كيف نقل الله «بيت المقدس من أيدي أصحاب المشأمة إلى ايدي أصحاب الميمنة»، وكيف جعل ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا، كما يصور كيف ارتفعت كلمة التوحيد، وكانت طرائقها مسدودة، وكيف أقيمت الصلوات الخمس، وجهرت الألسن بالله اكبر[1].

ويصورهم محيي الدين بن الزكي، في خطبته القدسية التي كانت أول خطبة خطب بها في المسجد الأقصى بعد تحريره من الاحتلال الصليبي، بأنهم أهل الشرك والكفر الذين أذلهم صلاح الدين وقهرهم، ودحض شركهم وإفكهم، كما يصورهم بالأمة الضالة[2].

وبرز الصراع في العقيدة جلياً بين المسلمين، والعدو الصليبي الغازي، وقد برز هذا الصراع في الشعر جلياً، ومن ذلك ما قاله نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور[4] كما تقدم.

ومنه ما قاله مجد الدين محمد بن الظهير الأربلي مشيداً بالأيوبيين[4]:

هُمُ نَصروا التوحيدَ نصراً مؤزراً ... به عَزَّ في الآفاقِ كلُّ مُوحد
وهم قَهروا غُلْبَ الفرنج ببأسهم ... فدانوا لهم بالرغم لا عن تودُّد
وردُّوا إلى البيت المقدسِ نُورَهُ ... وقد كان في ليلٍ من الشِّرك أسْوَد

(١) انظر مفرج الكروب ٣/٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٢٤٢، وفيات الأعيان ٧/١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٦، صبح الأعشى ٦/٤٩٧، ٤٩٨، ٥٠٠، ٥٠٣، ٨/٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٩، شفاء القلوب/ ١٤٣.

(٢) انظر: الروضتين ٢/١١٠، مفرج الكروب ٢/٢٢١، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢١٣، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٨٧، شفاء القلوب/ ١٣٢.

(٣) انظر كتاب الروضتين ٢/١٠٣.

(٤) نفسه ١/١٩٦.

هاجم الشعراء المسلمون العدو الصليبي الغازي، في عقيدته، ومما يصور هذا ما قاله الحكيم أبوالفضل عبدالمنعم بن عمر بن حسان الجلياني، مشيداً بمنقذ القدس من ناحية، وساخراً من العدو الصليبي، كما يبدو في قوله[1]:

يا مُنْقِذَ القُدس من أيدي جبابرةٍ ... قد أقسموا بذراع الربّ تَدْخُلُه
فما كذبوا كذبهم في وصف ربهم ... وصدَّق الوعد مأموناً محوِّله
لما سَبى القُدس قالوا كيف نتركها ... والرب في حفرة منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سرى ... لينصروا القَبر والأقدار تخذله

ولأنهم أهل شرك، فإننا نجد العماد الأصفهاني، يصورهم بأنهم أمة النار، كما يبدو في قوله مخاطباً صلاح الدين من قصيدة قدسية[2]:

بَعثَتَ إمامَ أُمةِ النار نحوها ... فزارَ أمامَ أرْناطها ذلك الحَبْسا
ولله نَصُّ النَّصْر جاء لنصلِهِ ... فلا قَوْنساً أبْقى ولا قِنْسا

وبرز هذا الصراع جلياً في النثر أيضاً، ومن ذلك ما جاء في رسالة قدسية كتبها القاضي الفاضل، إلى الخليفة العباسي في بغداد، على لسان السلطان صلاح الدين[3].

ويصور العماد، في كتاب جامع للفتح القدسي الأيمن كتبه على لسان صلاح الدين، إلى أخيه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب، في اليمن، ما كان عليه بيت المقدس في ظل الاحتلال الصليبي، وقد بقي كذلك إلى أن استفتحه المسلمون في سنة ٥٨٣ هـ، وذلك بنهوض الأمة المحمدية إلى الكفر سرية سريه[4]، للقضاء على أهل النار، كما يصور العماد الصراع في

(١) كتاب الروضتين ٢/١٥١، وانظر ذلك في: ديوان ابن سناء الملك/ ٨١٨، مفرج الكروب ٤/٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٩١، الروضتين ٢/١٠٥، ديوان طلائع/ ٦٣، ديوان أسامة/ ١٦٥.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٦، كتاب الروضتين ٢/٨٣، ٨٤.

(٣) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٣، ١٧٤، الدر النظيم/ ٢١، مفرج الكروب ٣/٣٣٨، وفيات الأعيان ٧/١٨٢، صبح الأعشى ٦/٤٩٩.

(٤) الفتح القدسي/ ١٩١، ١٩٢.

العقيدة مرتبطاً بالصراع العسكري[1].

ويصور القاضي محيي الدين بن الزكي، في خطبته القدسية، ذلك الصراع في العقيدة، كما يبدو في حديثه عن عبودية المسيح عليه السلام، وهو الذي كرمه الله بنبوته، «فلم يزحزحه عن رتبه عبوديته»، ويشيد بالمسلمين الذين حرروا بيتهم المقدس من معالم الشرك، كما يبدو في قوله: «وشكركم الملائكة المنزلون على ما اهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتحميد[2].

★★★

ويصور النثر الفني القدسي الاعداء الصليبيين بأنهم أهل رجس وآثام، وقد اقترن هذا مع الدعوة إلى تطهر بيت المقدس، وأهله، ومقدساته، من الشرك والرجس، والآثام، ومن ذلك قول الحافظ ابي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، مهنئاً نورالدين زنكي بدخول مصر، وحاثاً على تحرير بيت المقدس، وكان ذلك في سنة ٥٦٤ هـ[3] كما تقدم.

ويدعو العماد الأصفهاني إلى تطهير القدس من الغزاة الصليبيين ورجسهم، كما يبدو في قوله مادحاً نورالدين ومهنئاً بملك مصر[4] كما تقدم.

ويشيد العماد بالسلطان صلاح الدين، إذ استطاع تطهير بيت المقدس من رجس الصليبيين[5]، ويركز الشعراء على الدعوة إلى تطهير المسجد الأقصى من دنس العدو الصليبي الغازي، ومن ذلك قول ابن منير الطرابلسي، مادحاً

---

(١) انظر الفتح القدسي/ ٦٤.

(٢) انظر: الروضتين ٢/١١١، مفرج الكروب ٢/٢٢٢، ٢٢٤، وفيات الأعيان ٣/٣٦٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٨٧، شفاء القلوب/ ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥.

(٣) انظر: خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/٢٧٧.

(٤) انظر: ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٢٦، ٣٨٢، الروضتين ١/١٧٥، ١٧٨، ١٧٩، مفرج الكروب ١/١٧٥، ١٧٨، تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ١/٧٢، خطط المقريزي ٢/١٩.

(٥) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢١٢، كتاب الروضتين ٢/١٠١، ١٠٢.

نورالدين زنكي، في سنة ٥٤٦ هـ[١]:

آثـارهـم نجس أذال المسجـدَ الـ ... أقـصـى فصـن ما دنّسـوه وطـهـر

وقوله مادحاً نورالدين أيضاً، ومهنئاً بفتح انطرطوس، وحاثاً على تدمير العدو الصليبي وتطهير الأقصى أيضاً[٢]:

ألقِ العصـا فيمن أطـاعَ ومَنْ عَصى ... منـهـم ودمّـر أرضـهُـم تدمـيرا
لا يُلهـهـمْ أن قد مَننْتَ وشُـنَّـهـا ... شَعْـواء تصـلى الكـافـرين سَعيرا
باكِـرْ بِرَكْـز قَنـاً تُنـسِّفُ أُسُسهـا ... والـخـيلُ صورٌ كي تُزيرك صُورا
وتريـك لامعـةُ التَّريك بساحة الـ ... أقـصـى مطهـرةً لهـا تطهـيرا

ويصور أبوعلي الحسن بن علي الجويني تطهير بلاد المسلمين من الشرك وأهله في نصف شهر، كما يبدو في قوله مخاطباً صلاح الدين[٣]:

في نصف شهر غَدا للشرك مُصطلِماً ... فَطُهـرِّتْ منـه أقـطارٌ وبُـلدان

وبهذا خلت ساحات بيت المقدس، ومقدساته من بني الأصفر، كما يبدو في قول الحكيم ابي الفضل الجلياني، من قصيدة قالها مهنئاً السلطان صلاح الدين بعافيته في سنة ٥٨٢ هـ، ورابطاً بين النصر في بيت المقدس، وفتح أم القرى[٤]:

إذا صفرتْ من آل الاصفر ساحةُ الـ ... ـقـدس ضاهتْ فتح أم القُرى قدما

وقوله في مستهل قصيدة أخرى أنشأها في السنة ذاتها[٥]:

الله أكبـر أرضُ القُـدس قد صفرت ... من آل الاصفـر إذ حين به حانـوا

وبهذا أصبح العدو الغازي المحتل عبرة لغيره، كما يبدو في قول الرشيد النابلسي، من قصيدة في الفتح القدسي[٦]:

---

(١) كتاب الروضتين ١/٧٨.

(٢) نفسه ١/٨٦، ٨٧.

(٣) نفسه ٢/١٠٤، ١٠٥.

(٤، ٥) نفسه ٢/١١٦، وانظر ص ٤١ من هذا البحث.

(٦) كتاب الروضتين ٢/١١٨، شفاء القلوب/ ١٦٦، ١٦٧.

أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظةً ... فيها لاعدائك الآيات والنُّذُرُ
صاروا حديثاً وكانوا قبلُ حادثةً ... على الوَرى يتقيها البدوُ والحضرُ
سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها ... حتى لقد ضَجرتْ من وَفْدِهم سَقَر
هو الذي سَلَب الافرنج دولتهمْ ... ومُلكهم يا ملوك الارض فاعتبروا

★★★

ويبدو تصويرهم بأنهم أهل رجس وآثام جلياً في النثر الأدبي، فالقاضي الفاضل يصور الأرض طامثة في ظل الاحتلال الصليبي كما يبدو في قوله، في رسالته القدسية: «وأضحتْ الأرضُ المقدسة الطاهرة وكانت الطامثَ».

ومثل ذلك ما جاء في رسالة كتبها إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، في سنة ٥٨٥ هـ، على لسان صلاح الدين، مستنجداً، فقد ذكر أنه طهر بيت المقدس «ممن كان يعارض برجْسه تَقديسه، ويزعج ببناء ضلاله تأسيسه». ويصور بيت المقدس جنة الإسلام، ولكن المسلمين خرجوا منها «خروج أبيهم آدم من الجنة». «وأعقبهم فيها إبليس الكفر»[1]. ويدعو العماد الأصفهاني إلى تخليص الأقصى وتطهيره من الكفر وأهله، يقول في حديثه عن فتح بيت المقدس: «... وإقصاء الذين أقصاهم الله بلعنته من الأقصى، وجذب قياد فتحه الذي استعصى، وإسكات الناقوس منه بإنطاق الأذان، وكيف كفّ الكفر عنه بأيمان الايمان، وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس، وأدناس أدنى الناس».

ويبدو مثل هذا جلياً في حديثه عن غاية صلاح الدين في توجهه إلى بيت المقدس، يقول: «وقصده استئصال نبات الشِّرك وحصده من أرض الله تعالى، وتقدس بتطهير الارض المقدسة بإهلاك الطائفة الطاغية». ويصور تطهير مواقف الأنبياء من أدناس الأرجاس كما جاء في رسالته القدسية التي كتبها إلى الديوان العزيز في بغداد مبشراً بفتح القدس[2]. ويصور العماد القدس وقد تقدست من

(١) مفرج الكروب ٣/٣٣٨، وفيات الأعيان ٧/١٨٢، صبح الأعشى ٦/٤٩٩، ٥٧٨.

(٢) انظر: الفتح القدسي/ ١١٦، ١١٧، ١٣٦، ١٤٧، ١٤٨، ٣٠٩، ٥٨٠.

رجس الفرنج كما يبدو في رسالته القدسية التي كتبها إلى الديوان العزيز ببغداد مبشراً بفتح القدس[1].

ويصور محيي الدين بن الزكي، في خطبته القدسية، تطهير بيت المقدس من «أدناس الشرك وأوصاره». ويقرن ذلك بالدعوة إلى تطهيرالأرض، واجتثاث أصول الكفر وفروعه، استجابة لما تدعو إليه الملة المحمدية[2].

★★★

ويصور الأدب العربي الذي قيل حول الفتح القدسي الجيش الصليبي الغازي، جيشاً جراراً كثير العدد والعدة، فهو كالسيل، أو كالجبال، قدم من أوروبا لغزو العالم الإسلامي، في الشام، ومصر، والجزيرة. ويصور ابن الخياط الدمشقي تلك الجيوش التي غزت بلاد المسلمين في الشام، وعلى رأسها بيت المقدس، معرضاً بها، ومصوراً تلك الجيوش من ناحية، ومعرضاً بالحكام المسلمين، الذين توانوا عن الجهاد من ناحية أخرى، كما يبدو في قوله[3]:

إلى كَمْ وقَدْ زَخَرَ المشركون ... بسَيْلٍ يُهالُ له السَّيْلُ مَدَّا
وقد جاش من أرض إفرنجةٍ ... جيوشٌ كمثل جبالٍ تردى

ويصورها فتيان الشاغوري بحراً متلاطم الامواج، كما يبدو في قوله[4]:

جاشت جيوش الشرك بوم لقيتهُمْ ... يتذامرون على متون الضُّمَّرِ
وكأنهمْ بحرٌ تدافَعَ مَوْجُهُ ... بظُبىً وزُعفٍ مُحْكمٍ وسَنُّور

ويصورهم أسوداً قبل الهزيمة، ثعالب بعدها، ويستغرب أن تصبح تلك الأسود الآدمية، طعاماً للأسود المفترسة، كما يبدو في قوله[5]:

آضَتْ أُسودهم ثعالبَ ذلةٍ ... فَهم فرائسُ كلِّ ليثٍ قَسْورِ

---

(١) انظر: الروضتين ٢/٩٦، ٩٧.

(٢) انظر: الروضتين ٢/١١٠، ١١١، مفرج الكروب ٢/٢٢٠، وفيات الأعيان ٣/٣٦٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٨٧، شفاء القلوب/ ١٣١، ١٣٢. (٣) ديوان ابن الخياط/ ١٨٢.

(٤) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٣، ١٤٤. (٥) نفسه/ ١٤٤.

ماتـوا بغُـلَّتـهـم وأرْوى منـهـمُ بيضَ الصـوارمِ بالـدَّمِ المُثعنجر

وهم جبابرةٌ قبل المعركة، ولكنهم أصبحوا تائهين أذلاء بعدها، بعد أن منوا فيها بالهزيمة، فالحكيم أبوالفضل عبدالمنعم الجلياني يصورهم في قدسيته الكبرى، فيقول[1]:

ووقعـة يوم التـل إذ قبضت به جبـابـرةُ الإفـرنـج حَيْرى وَشُـرَّدَا
عليهـم مـن البلوى سرادقُ ذلـةٍ ومَـنْ ذَلَّ ماتـتْ نَفـسـه فتـقـيدا

وهم كثيرون أقوياء كالجبال الشماء ذات المسالك الصعبة، ولكن ذلك لم يجد نفعاً أمام الجيوش الإسلامية بقيادة السلطان صلاح الدين الأيوبي، كما يبدو في قول الرشيد النابلسي، من قدسية أنشأها بمناسبة الفتح القدسي[2]:

يومٌ به التـأمَ الـكـفـارُ في عددٍ جَم ولـكـن لكـسـرٍ ليس يَنجبِـرُ
فالـرَّوعُ مُتَّصِـلٌ والصبـرُ منفصـل والـنَّقْـعُ مرتفـعٌ والنَّصـرُ مُنحـزِرُ
جاءوا كمـا أقبـلَ الـطودُ الأشَمُّ لَهُ مِن حيثُ ما سرتَ فيه مسلكٌ وَعِـرُ
وجئتهم مثلمـا انقضَّ القضـاءُ فلا والله لم يُغْـنِـهِـم بأسٌ ولا وَزَرُ

ولكن تلك الجيوش الجرارة التي أحرزت نجاحاً في الحملة الصليبية الأولى بسبب أوضاع العالم الإسلامي كما تقدم، لم تلق مثل ذلك النجاح في ظل العهد الزنكي، ثم في ظل عهد صلاح الدين الأيوبي، فقد مُنوا بالهزائم المريرة في هذين العهدين، ولم تجدِ نفعاً جيوشهم الجرارة، وآلوا غثاءً، كما يبدو في قول الحكيم أبي الفضل عبدالمنعم الجلياني، في قدسيته الكبرى[3]:

وجَـرّوا جيوشاً كالسيول على الصوا فآضتْ غُثـاءً في البـطاح مُمـدَّدا

ويصـور القـاضي الفـاضل الأعداء، في رسالته القدسية، كثيري العدَد والعـدُد، فهم أكثـر من الحصى عدداً[4]. ويصـورهم العمـاد الأصفهاني قد «خرجوا عن العد والاحصاء، وانهم كانوا عدد الحصى، وذكر أنهم زادوا على

(١) كتاب الروضتين ٢/١١٧، ١١٨.

(٢) شفاء القلوب/ ١٦٦. (٣) كتاب الروضتين ٢/١١٧.

(٤) انظر: رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٣، الدر النظيم/ ٢١، مفرج الكروب ٣/٣٣٨، وفيات الأعيان ٧/١٨٢، صبح الأعشى ٦/٤٩٩، ٨/٢٨٤.

خمسين الفا[1]. ويذكر القاضي الفاضل انه لما نازل المسلمون القدس رأوا فيها «جمعاً كيوم التناد»، كما يقول. ويصورهم أولي «عزائم قد تألفت وتألبت على الموت»، قبل ما حل بهم من هزائم، ولكن ذلك كله لم يُجدِ فتيلاً، فقد تحولت سيوفهم إلى عصي، وكلت حملاتهم، وعثرت أقدامهم. وغضت عيونهم[2]. ويصور العماد خروج الفرنج استعداداً لمعركة طبرية في سنة ٥٨٣ هـ، وقد خرجوا في جمع شاك، وجمر ذاك، برماحهم، وسيوفهم، ودروعهم، ويبين أن الفرنج كانوا يرون الشدة والعزيمة في ألويتهم، والنوازل في بيارقهم، والأدواء في داويتهم، والسيف البتار في اسبتاريتهم. ويصور استعدادهم في صفورية. مرتبين جيوشهم، حاشدين حشودهم، رافعين ألويتهم، متسلحين برماحهم وسيوفهم، ثابني الجأش، رافعي صليب الصلبوت[3].

ويصور جيشهم وهم سائرون إلى طبرية بأنهم «قدماجت خضارمهم، وهاجت ضراغمهم، وطارت قشاعمهم، وثارت غماغمهم، وسدت الآفاق غمائهم، وهم كالجبال السائرة، وكالبحار الزاخرة، أمواجها متلاطمة، وأفواجها مزدحمة، وفجاجها محتدمة، وأعلامها مصطلمة...».

ويصورهم في كتاب جامع حول الفتح القدسي، على لسان صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام، ظهير الدين طغتكين في اليمن، في تحركهم نحو طبرية، قد استعر جمرهم، وزخر بحرهم، و«أتوا في عددهم وعديدهم، وحدهم وحديدهم، وخيلهم ورجلهم، وطلهم ووبلهم، وفارسهم وراجلهم، وأحزاب ضلالهم، وأبطال باطلهم»، كما يصورهم وكأن «ساكنهم لا يتحرك، وصفهم لا ينفض، وجدارهم لا ينقض، وبنيانهم مرصوص، وطائرهم عن الطيران محصوص»[4].

---

(١) انظر: الفتح القدسي / ٧٤، ١٢٤، سنا البرق الشامي / ٢٩٥، ٣١٠.

(٢) انظر: مفرج الكروب ٣/٣٣٨، ٣٤٠، ٤٩٩، وفيات الأعيان ٧/١٨٢، ١٨٤، صبح الأعشى ٦/٥٠١، ٨/٢٨٤، ٢٨٦.

(٣) انظر: الفتح القدسي / ٦٣، ٦٥، ٧٣، ٩٤، ١٩٢، ١٩٣، سنا البرق الشامي / ٢٩٣.

(٤) انظر: الفتح القدسي / ٧٧، ٨١، ١٩٤، ١٩٥.

ويركـز الأدب العـربي على تصوير ما آلت إليه الجيوش الصليبية في مصيرها. ولا تكاد قصيدة قدسية، أو رسالة قدسية، أو خطبة قدسية، أو كتاب قدسي، يخلو من تصوير ما حل بالعدو الصليبي الغازي من هزائم، وما آلت إليه جيوشهم الجرارة، ويركزون على ما حل بملوكهم وقادتهم، والمصير الذي آلوا إليه، ويسخرون منهم سخرية مريرة.

يصور العماد الأصفهاني الكسرة التي نزلت بهم في معركة حطين، والدمار الذي حلّ بجيوشهم، والموت الذي حط بفنائهم، فما عدت ترى جيشاً جراراً، ولا تسمع أبطالاً كانوا يزأرون[1].

ويصور الجيش الصليبي وصفاً يمور بالسخرية والتهكم، إذ تصوره جبلاً نسفته الريح، كما يبدو في قوله، من قصيدة يمدح بها الملك الظاهر غازي[2]:

جيشُ الفـرنـج إذا لاقى سَوابقهم كأنَّـه جَبَـلٌ بالـريحِ منـسـوفُ

★★★

ويفصل القاضي الفاضل في توضيح معالم الصورة التي آل العدو الصليبي اليها، بعد الهزيمة التي مني بها، كما جاء في رسائله العديدة، ومنها رسالته القدسية التي كتبها الى الخليفة العباسي في بغداد، على لسان صلاح الدين، بمناسبة الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ، وفيها يصور ما لحق بهم من ذل، كما يبدو في قوله: «وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، فأدلجت السيوف إلى الآجـال وهي نائمـة». ويصـور المـآل الـذي آلـوا إليه، على الرغم من كثرة أسلحتهم، وكثرة عدَدهم، ويقابل بين ما كانوا عليه قبل الفتح في شجاعتهم وقوة عزائمهم، وما آلوا إليه بعده، كما يبدو في قوله: «وقد أظفرَ الله بالعدو الذي تَشظَّتْ قناتُهُ شَفَقا، وطارتْ فِرَقُهُ فرقاً، وفُلَّ سيفه فصار عصا، وصُدعتْ حصاتُه وكـان الأكثـر عدداً وحصى، وكَلتْ حملاته، وعثرتْ قَدَمُه وكانت الأرض لها

---

(١) انظر ديوان العماد الأصفهاني ٢٣٤، ٢٣٥، كتاب الروضتين ٢/١٠٧.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٩٧.

حليفة، وغُضتْ عينه وكانت عيونُ السيوفِ دونها كسيفه، ونام جفنُ سيفه، وكانتْ يقظتُهُ تُريق نُطَفَ الكرى من الجفون، وجُدعتْ أنوفُ رماحه، وطالما كانت شامخةً بالمنى أو راعفةً بالمنون»، ويصور فرسانه الشجعان مذعنين، لا ملجأ لهم ولا نصرة، وقد ضُربت عليهم الذلة والمسكنة، ويصورهم وقد هزموا هزيمة لا جبر لها، وصُرعوا صرعة لا حياة لكفرهم بعدها، ويصور أسراهم وقتلاهم[1].

ويصورهم العماد الأصفهاني قبل ما حلَّ بهم من هزائم بأنهم شديدو العرائك، وقد «خرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت»، وهم يقاتلون جنداً ورعية، وقد كانوا متمادين في طغيانهم، فظاظاً غلاظاً، نزلت الرقة من قلوبهم. وأما بعد معركة حطين، فقد انتشرت جثثهم في ساحة المعركة، يقول: «وعبرتُ بها ـ حطين ـ فلقيتُ أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة، بالعراء عراة، ممزقة بالمازق، مفصلة المفاصل، مفرقة المرافق، محذوفة الرقاب، مقطوعة الأصلاب، مقطعة الهام، موزعة الأقدام، مجدوعة الآناف، منزوعة الأطراف، وكانوا عبرة لأولي الأبصار»[2].

ويذكر العماد أنه عبر بحطين، فرآها موضع الاعتبار، وقد رأى «الرؤوس طائرة، والنفوس بائدة، والجسوم رمتها السوافي، والرسوم درستها العوافي»، وأبصر خدودهم «ملصقة بالتراب، وقد قطعوا آرابا»[3]، ويصور تعلقهم بكنيسة القيامة، وتأهبهم للدفاع عنها، كما يصورهم وقد «استشاطت شياطينهم، وسرحت سراحينهم، وطغت طواغيتهم...، وهاج هائجهم، وماج مائجهم...، وحضتهم قسوسهم، وحرضتهم رؤوسهم، وحركتهم نفوسهم»[4].

---

(١) انظر رسائل عن الحرب والسلام/ ١٧٣، الدر النظيم/ ٢١، مفرج الكروب ٣/٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، وفيات الأعيان ٧/ ١٨١، ١٨٢، صبح الأعشى ٦/٤٩٩، ٥٠١، ٨/٢٨٤، شفاء القلوب/ ١٤٣، ١٤٤.

(٢) الفتح القدسي/ ٥١، ٨٢، وانظر: سنا البرق الشامي/ ٢٩.

(٣) سنا البرق الشامي/ ٢٩٧، ٢٩٨.

(٤) الفتح القدسي/ ١١٩.

وما أجمل ما يصور به العماد مصير الفرنج بعد الفتح القدسي، في كتاب كتبه عن السلطان صلاح الدين إلى الناصر لدين الله في بغداد، فيحدد الأيام التي لاقوا فيها سوء المصير، وهي من يوم الخميس، الثالث والعشرين من ربيع الآخر، إلى يوم الخميس منسلخه، فيقول: «وتلك سَبعُ ليالٍ وثمانية أيام حُسوماً، سخرها الله على الكفار، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية»، ورايتها إلى الإسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية، فيوم الخميس الأول فُتحت طبرية، وفاضَ ريُّ النصر من بحيرتها، وقضتْ على جسرها الفرنج فقضت نحبها بحيرتها، وفي يوم الجمعة والسبت كُسر الفرنج الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القُرى وهي ظالمة . . .»[1].

وأما ملوكهم وقادتهم، فقد كان مصيرهم مصير جيوشهم، فملوكهم ذلوا وهم يقادون في بحر من الدماء، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني[2]:

حَطَطْتَ على حِطّين قَدْرَ ملوكهمْ ... ولَمْ تبقِ مِنْ من أجناسِ كُفرهمُ جنسا
تُقاد بدأماءِ الدماءِ مُلوكهمْ ... أُسارى كسُفنِ اليمِّ نَطَّتْ بها القَلسا

ويصورهم الحسن بن علي الجويني، وقد أصبحوا صيداً في يد صلاح الدين، ويوازن بين صورتهم هذه، وصورتهم من قبل، وقد كانوا سادة صيدا، كما يبدو في قوله[3]:

أضْحتْ ملوكُ الفرنجِ الصِّيدُ في يده ... صَيْداً وما ضَعُفوا يوماً وما هانوا
كمْ مِنْ فحولِ ملوكٍ غُودِروا وهُمُ ... خوف الفرنجةِ ولدانٌ ونسوانُ

ويوازن الجواني بين ملوكهم، وقد كانوا سادة أحراراً، وملكوهم الذين آلوا مقيدين بعد هزيمتهم، كما يبدو في قوله، في قصيدته القدسية[4]:

ومليكُهُمْ في القَيدِ مَصفودٌ وَلَمْ ... يُرَ قبلَ ذاك لهم مليك يُؤْسَرُ

---

(١) الفتح القدسي/ ٥١٨، ٥١٩.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/٨٣، مرآة الزمان ١٤/١٥٢، النجوم الزاهرة ٦/٣٤.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٠٥.

(٤) كتاب الروضتين ٢/١٠٥، تاريخ الخلفاء/ ٤١٨.

ويصور ابن سناء الملك الأسرى من ملوكهم، وقد انقلبت المقاييس عندهم، بعد أن كانوا ملوكاً وفرساناً عظماء يتمنون اللقاء في ساحات الوغى، فاصبحوا أذلاء، أرقاء، كما يبدو في قوله موازناً ومقابلاً بين الصورتين، ويبدو ذلك ممزوجاً بالسخرية والتهكم[1]:

وَحَوى الأسرُ كلَ مَلْكٍ يَظنُّ أنَّ الـ ـهر يَفنى ومُلْكُه ليسَ يفنى
والمليكُ العظيمُ فيهم أسيرٌ يَتَثَنَّى في أدْهم يَتثنى
يحسبُ النومَ يَقظةً ويظن الشـ ـخص طَوْداً ويبصرُ الشمسَ دَجْنا
كمْ تمنّى اللقاءَ حتى رآه فَتمنّى لو أنه ما تَمنّى
ظنَّ ظَنّا وكنت أصدقَ في اللّـ ـه يقينا وكان أكذب ظَنا
رَقّ من رَحْمةٍ له القيدُ والغلـ ـل عليه فكلّما أنَّ أنّا

ويركز الشعر على تصوير عدد من ملوكهم وقادتهم الذين كان لهم أثر جلي في الحروب الصليبية، ومنهم (بلدوين)، و(الجوسلين)، و(أرناط)، وغيرهم من الملوك والقادة، فأسامة بن منقذ يتحدث عن كسرهم، وأسرهم، ويعاهد المسلمين على أنه لن تنثنى خيول المسلمين إلا بتحرير القدس، كما يبدو في قوله، من قصيدة يتحدث فيها عن أفعال نور الدين زنكي[2]:

ونحن أسَرْنا (الجوسلين) ولمْ يكُنْ ليخْشَى من الأيام نائبةً تعرو
وكان يظن الغر أنا نبيعه بمالٍ، وكم ظنّ به يهلكُ الغِرُّ
فلما اسْتبحْنَا مُلكهُ وبلادَهُ ولَمْ يبْقَ مالٌ يُستباحُ ولا ثَغرُ
ونحن كسرْنا (البغدوين) وما لمن كسرناه إبلالٌ يُرجَّى ولا جَبْرُ
فَسله اللعين الحائنَ الخَائن الذي له الغدرُ دينٌ: ما به صَنعُ الغَدرُ
وقد ضاقت الدُّنيا عليه برحْبها فَلَمْ يُنجِه برٌّ ولَمْ يَحمِه بَحْرُ
أفي غدره بالخيل بعد يمينه بإنجيله بين الأنام لَهُ عُذرُ
دعته إلى نكثِ اليمينِ وغَدرهِ بذمته النَّفسُ الخسيسةُ والمكرُ

إلى أن يقول:

---

(١) ديوان ابن سناء الملك/ ٨١٨.

(٢) ديوان أسامة بن منقذ/ ٢٠٣، ٢٠٤.

وما تنثني عنه أعنةُ خَيلنا ... ولو طار في أفق السماء به النسرُ
إلى أن يزورَ الجوسلين مُساهماً ... له في دياجٍ ما لليلتها فجرُ
ونرتجعَ القُدسَ المُطهَّر منهمُ ... ويُتلى بإذن الله في الصخرة الذِّكْرُ

ومن الواضح ان أسامة يقابل بين صورتين لأولئك القادة، صورة قبل الهزائم التي كانت تحل بهم، وأخرى بعدها، فهو يصور الجوسلين بأنه لم يكن يخشى نائبة نوائب الأيام، وقد أصبح أسيراً يحاول أن يفتدي نفسه بالمال، ولكن أنّى له ذلك؟ ويصفهم بأنهم أصحاب خيانة، وغدر، ومكر وأما أرناط، فيصوره العماد الأصفهاني، في قصيدة قدسية، في غدره وبغيه ونكثه للعهود، وهو الذي عمل على مهاجمة أقدس مقدسات الإسلام والمسلمين في مكة والمدينة، وقد ألحق بالإسلام والمسلمين الكثير من الأذى، واعتدى على قوافل حجيج المسلمين، ولهذا نال جزاءه، إذ قتله صلاح الدين بسيفه. ويركز العماد على تصوير قتله بأسلوب يفيض بالسخرية، والتهكم. ويقرن ذلك بتمجيد صلاح الدين، وتمجيد السيف الذي طهر الأرض من شر أرناط وآثامه، كما يبدو في قوله[1]:

شَكا يَبَساً رأسُ البِرِنْسِ الذي به ... تَندَّى حسامٌ حاسمٌ ذلك اليَبْسا
حسا دَمَهُ ماضِي الغِرارِ لغدرِهِ ... وما كان لولا غَدْرُهُ دَمُهُ يُحسى
فللّه ما أهدى يَداً فتكتْ به ... وأطهرَ سيفاً معدماً رِجْسَهُ النجْسَا
نَسَفْت به رأسَ البرنس بضربة ... فأشبه راسي رأسه العِهْن والبرسا
تَبوَّغَ في أوداجِهِ دمُ بَغيهِ ... فصالَ عليه السيفُ يَلْحسُهُ لَحْسَا
بعثتَ إمامَ أمةِ النارِ نحوها ... فزارَ أمامَ أرناطها ذلك الحَبْسَا

ويصوره، في قدسية ثانية، يتحدث خلالها عن معركة حطين، بأنه كان عظيم الكفر والكفار، ويشيد بالسيف الذي برى رأسه. ويصوره في شركه، وغدره، وخبثه، ويصور رأسه وقد اجتثت عن جسده، وهي صورة جديدة مثيرة غريبة، كما يبدو في قوله[2]:

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٥، ٢٣٦، كتاب الروضتين ٢/٨٣، ٨٤، وانظر ص ٨٢ من هذا البحث.
(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٢٩، ٢٣٠، كتاب الروضتين ٢/٨٣.

يا طُهر سَيفٍ برى رأس البرنس فقد أصابَ أعظمَ مَنْ بالشِّرك قد نَجسا
وغاصَ إذا طارَ ذاك الرأسُ في دمه كأنه ضفدعٌ في الماء قد غَطَسَا
ما زالَ يعطسُ مزكوماً بغدْرَته والقتل تشميتُ مَنْ بالغدرِ قد عَطَسا
عَرَّى ظُباه من الأغمادِ مهرقة دماً من الشِّرك رداً هابه وكسا
مَنْ سيفه في دماءِ القوم منغمسٌ مِنْ كل مَنْ لَمْ يَزَلْ في الكفر منغمسا

ويسخر الحكيم أبوالفضل عبد المنعم الجلياني من ملوك الصليبيين وقادتهم، فقد كانوا يظنون أنهم ملوك الأرض الذين يخضع لهم الملوك الآخرون، وتزداد سخريته عندما يصور أحد ملوكهم قادماً إلى المشرق الإسلامي لحماية كنيسة القيامة، ويصوره متصرفاً بالعراق وكأنه ملك له، وإذا به يؤول إلى سوءِ المصير، كما يبدو في قوله[1]:

وقالوا ملوكُ الأرضِ طوْعَ قيادِنا إذا الكل منهم في القيود معبدا
وقد أقطعَ الكندُ العراق موقعا فأودع سجنا وسط جلق مؤصدا
وأقسمَ أنْ يَسْقي بدجلة خيله فما ورد الأرْدُن إلا مُصَفَّدا
فما عقدَ الرايات إلا محللا ولا حَلَّلَ الرايات إلا معقدا

ويصور القاضي الفاضل، في رسالته القدسية، كيف خرج «باليان بن بارزان» طالبا تسليم بيت المقدس بالسلام والأمان، وقد بدا ذليلاً. ويقابل القاضي الفاضل بين ما كان عليه القائد الصليبي، وما آل اليه من سوء المصير، يقول: «وفي الحال خرج طاغية كفرهم، وزمام أمرهم ابن بارزان» سائلاً ان يؤخذ البلد بالسلام لا بالعنوة، وبالأمان لا بالسطوة، وألقى بيده إلى التهلكة، وعلاه ذل الملكة (أي ان يصبح مملوكاً) بعد عز المملكة، وطرح جبينه في التراب، وكان لا يتعاطاه طارح». ويصور المفاوضات التي جرت بين المسلمين وعدوهم من أجل التسليم، وكيف قُبل منهم ذلك «عن يدٍ وهم صاغرون»[2].

ويصور العماد الأصفهاني، في حديثه عن فتح بيت الله المقدس، كيف

(١) كتاب الروضتين ٢/١١٧.

(٢) رسائل عن الحرب والسلام/ ١٨٣، ١٨٤، الدر النظيم/ ٢٩، ٣٠، مفرج الكروب ٣/٣٤١، وفيات الأعيان ٧/١٨٥، صبح الأعشى ٦/٥٠٢، ٨/٢٨٧.

شغل بال باليان هذا عندما سمع بخبر توجه السلطان صلاح الدين نحو القدس لفتحه، ويصوره وقد اشتعل باله بالنيران، وضاقت به وبغيره من القادة منازلهم، وكأن «كل دار منها شرك للمشرك» منهم.

ويصور «إبرنس الكرك» «ناصب أشر الشرك نصب الشَّرَك». ويصوره بأنه كان «أغدر الفرنجة، وأخبثها، وأفحصها عن الردى، وأنقضها للمواثيق المحكمة وأنكثها». ويصور مصيره بعد معركة حطين، وكيف ضُربت رقبته، وعُجل به إلى النار، مأوى أهل الغدر[1].

★ ★ ★

ويصور الأدب العربي القدسي فرسانهم وكأنهم السيول عدداً، والجبال قوة وثباتاً، وهم الذين قتلوا، ونهبوا، وهتكوا، فكانت سيوفهم ورماحهم داميات، دون أن يلقوا مقاومة حقيقية، في الحملة الصليبية الأولى لانقسام المسلمين، وتفرقهم، واستسلامهم، ومحاربة بعضهم بعضاً.

ويصورهم العماد الأصفهاني ذوي أخلاق خشنة قاسية، ولكنها خشونة وقسوة ذهبت بحد السيف، كما يبدو في قوله[2]:

أتَوْا شُكُسُ الأخلاق خُشْناً فَلَيَّنَتْ
حدودُ الرّقاق الخُشْن أخلاقَها الشُّكْسَا
طَرَدْتَهُمُ في الملتقى وعَكَستهُمْ مجيداً بحكمِ العَزم طَرْدَكَ والعَكْسَا

ويركز الأدب في حديثه على فرقتين عسكريتين من أهم فرق الجيوش الصليبية، وهما الداوية، والاستبارية، وقد اشتهر فرسان هاتين الفرقتين بالقوة والشجاعة، وقد ألحقوا بالمسلمين أذى كبيراً، وكان لهم دور بارز في الحروب الصليبية، إلى حد أصبحوا فيه حماة الصليبيين في الشام.

يدعو العماد الأصفهاني السلطاني صلاح الدين إلى القضاء على

(١) الفتح القدسي/ ٥٩، ١١٧، وانظر: ١٢٦، ١٢٧، ١٩٧، ١٩٨، سنا البرق الشامي/ ٣١١.
(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٤، كتاب الروضتين ٢/٨٣.

الاستبارية كما يبدو في قوله من قصيدة أنشأها في سنة ٥٧٢ هـ[١]:

فَسِرْ وافتح القُدس واسْفُكْ به ... دماءً متى تُجرِها تَنظَفِ
وأهْدِ إلى الاسبتارِ البَتّارَ ... وهُدَّ السقوفَ على الأسقفِ
وخَلِّص من الكفر تلك البلادَ ... يُخلِّصْكَ رَبُّك في الموقف

ويصور الحكيم عبدالمنعم الجلياني فرسان هاتين الفرقتين أقوياء متحدين، وكأنهم سد شديد الحصانة والمنعة. ولكن ذلك لم يُجد فتيلاً أمام جيوش المسلمين بقيادة صلاح الدين، في سنة ٥٨٣ هـ، كما يبدو في القصيدة الفتحية الناصرية مصورة فرسانهم هؤلاء، مازجة ذلك بالسخرية والتهكم[٢]:

مالي أرى مَلِكَ الإفرنج في قفص ... أين القواضب والعسَّالة السُّمُرَ
والإسْبتارُ إلى الداويّه التأموا ... كأنهم سدُّ يأجوج إذا استجروا
والنَّفْس مولعة عُجْباً بسيرتها ... وفي المقادير ما تُسلى به السِّيرُ

ويصور فتيان الشاغوري المصير الذي آل إليه فرسان الداوية في المعارك الحامية الوطيس، كما يبدو في قوله[٣]:

كم أُودِعَتْ دَوِّيةً داويّةً ... صُدعوا بها في المعركِ المسْتوْعِر
جعلت لها الثارات في آنافنا ... أرج العَرار وطيب عَرْف العَبهر

ويصور العماد الأصفهاني، في حديثه عن البيت المقدس، الفرسان الدَاوية، والاسبتارية، مقبلين على القتال، متلهفين عليه، وأيديهم «على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة»، و «في كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب»[٤]، كما يقول العماد في تصويره إقبالهم على القتال. ولكن ذلك كله لم يُجد نفعاً في معركة حطين، أو عند الفتح القدسي، أو غيرهما من المعارك الحاسمة. لقد كانوا شجعاناً كما يصورهم فيما تقدم، قبل هزيمتهم في سنة

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٠٤، خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر ١/١٥، كتاب الروضتين ١/٢٦٩، مفرج الكروب ٢/٥٦.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١١٦.

(٣) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٥.

(٤) الفتح القدسي/ ١٢٥.

٥٨٣ هـ، ومن ذلك تصويره فرق الفرنج العسكرية، وقد «وثبوا في وثبات الأساد، وحملوا في ثبات الأطواد». ويضيف العماد قوله بأنه لولا «أن الله أصحب أصحابنا التوفيق، لكاد الكفر ينجو، والإسلام لا يدرك ما يرجو». هذا ما كان قبل المعركة، وهذه هي الصورة التي صورهم بها قبل المعركتين الحاسمتين: حطين وبيت المقدس، ولكن أولئك الفرسان آلوا بعدها إلى أسوأ مصير، بين قتل، وأسر[١].

ويصورهم العماد يلبسون الزردي من هامة الرأس حتى القدم، وكأن الواحد منهم «قطعة من حديد»، وهو مقبل على المعركة[٢].

★★★

ويصور الأدب العربي أسراهم مصفدين بعد أن أدار عليهم صلاح الدين «رحى طحونا»، فنزلت بهم صروف الأحداث، وخانهم الزمان، كما يقول ابن الساعاتي[٣]. ويصورهم وقد حل بهم الفناء، إما قتلاً، وإما أسرا، كما يبدو في قول العماد الأصفهاني، في إحدى قدسياته[٤]:

أفناهم قتلهم والأسر فانتكسوا وبيتُ كُفرهم من خبثهم كنسا

ويصورهم عبدالمنعم الجلياني وقد سيقوا أسرى، وبيعوا بأبخس الأثمان، كما يبدو في قوله[٥]:

أتوا كحبال أُبْرمت لإسارنا فَسُقناهم فيها قطينا مجددا
وساموا تجارا تشترينا غواليا فبعناهُمُ بالرخص جهراً على الندا

وقول فتيان الشاغوري مصوراً بعض أسرى صلاح الدين[٦]:

(١) انظر: سنا البرق الشامي/ ٢٩٢، وانظر/ ٢٩٨.

(٢) انظر: الفتح القدسي/ ٢٤٩، سنا البرق الشامي/ ٢٩٧، ٣٠٩.

(٣) انظر: ديوان ابن الساعاتي/ ٤٠٦، الروضتين ٢/٨٤-٨٥، مفرج الكروب ٢/١٩٨، شفاء القلوب/ ١٢٦-١٢٨.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٢٣٠، كتاب الروضتين ٢/٨٣.

(٥) كتاب الروضتين ٢/١١٧.

(٦) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٦.

أغلى الأداهم مَنْ أسَرتَ وأُرخصِتْ بيضُ الصَّوارم مِن نهاب العسكرِ

★★★

ويصورون صليب صلبوتهم بين الأسرى، فابن سناء الملك يصور كيف ظل معبودهم اسيراً لدى السلطان صلاح الدين، وهو أسير مستضام، ويدعوه الشاعر إلى ان يجعل النار سجناً لذلك الاسير[1]. والحكيم أبوالفضل عبدالمنعم الجلياني، يصور صليب صلبوتهم منكسا، وقادتهم أسرى، كما يبدو في قوله، في قصيدته الفتحية الناصرية[2]:

بَيْنـا سَبَـاياه تُجلى في دمشق إذا مَلْكُ الفـرنـج مع الأتـراك مُحتجَزُ
إزاءه زعـمـاءُ الـسـاحـلين معـاً مُصفـدين بحبـل القهْـرِ قد أسـروا

ويصفـون صليب الصلبوت، وكان قد اخذه صلاح الدين، ثم سيره ابنه الأفضل إلى الديوان العزيز ببغداد، بأنه ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعاً بالجـواهـر[3]. ويصـور القـاضي الفاضل، في رسالته القدسية، كيف أُسرت سَراتهم، وكيف أُسر مليكهم، وبيده صليب الصلبوت، يقول: «وأُسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وآكدُوصَلْة بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت»، ويصور مكانة ذلك الصليب في نفوسهم، فقد كانوا يقاتلون تحته أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقاً عليه اشدَّ عقد وأُوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه[4].

ويصـور العمـاد الأصفهـاني أسـراهم بعـد معـركة طبرية، عندما جلس السلطان لعرض أكابر الأسرى، وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى، ومنهم عدة من ملوكهم وقادتهم، وعدة كثيرة من الداوية والاسبتارية. ولكثرة أسراهم «لم تكف أطناب الخيم لقيده وشده. ولقد رأيت في حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مائة أو مائتين يحميهم حارس». وعمل صلاح

(١) ديوان ابن سناء الملك/ ٨١٨، مفرج الكروب ٢/٢٣٤، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٩١.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١١٧.

(٣) انظر: العتبى (والعقبى عن الروضتين) ٢/٢٢٥.

(٤) رسـائل عن الحرب والسلام/ ١٧٦، ١٧٧، الدر النظيم/ ٢٣، ٢٤، مفرج الكروب ٣/٣٣٩، وفيات الأعيان ٧/١٨٣، صبح الأعشى ٦/٥٠٠، ٨/٢٨٥، وانظر: الفتح القدسي/ ٧٤.

الـدين على تطهير الأرض من الداوية والاسبتارية[1]. ويصور العماد صليبهم الأعظم أسيراً.

وكان الفرنج في خروجهم من القدس قـد «اقتسمتهم أيدي السبي أيدي سَبَا، وتفرق الغانمون بجمعهم في الوهاد والربا»، كما يقول العماد الأصفهاني[2].

★★★

ويصـور الأدب سبـاياهم كثيرات جميلات، وهن مثل القنافي قد ودهن وتثنيهن، أو هن آنسات مثل الظباء، كما يصورهن ابن الساعاتي، في قصيدته التي قالهـا في معركة طبرية[3]. ويصور العماد الأصفهاني سباياهم قد ملأت الدنيا، وبيعت في سوق النخاسة بأبخس الأثمان، كما يبدو في قوله[4]:

سَبـايا بلادُ الله ممـلوءةٌ بهـا وقَدْ شريَتْ بَخساً وقد عُرضت نَخسَا
يُطافُ بهـا الاسـواقَ لا راغب لهـا لكثرتهـا كم كثـرةٍ توجبُ الـوكسَـا

ويصـور العمـاد الأصفهـاني ما أحـرز المسلمـون من سبـايا غانيات، مصبيات، وجواري لطيفات، ناهدات متنهدات، فريدات متفردات، ناعمات شقيات، قينـات نقيات، ساحـرت مسحورات، مخدرات مهتوكات، موقرات منهوكات. ويصور نساء الفرنج محجوبات هتكن، ومالكات ملكن، وعزيزات منـحـن، وبـحيلات تسمحن، وحييات توقحن، ومصـونـات ابتـذلن، وعقيلات امتهن، وعذراوات افترعن، وغاليات استرخصن، وعاليات استنزلن، ومليحات «مقبلات أوايب، طويلات الذوائب، ثقيلات الروادف، خفيفات المعاطف»، كما يقول[5].

★★★

(١) انظر: الفتح القدسي/ ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٦، ٩٣، ١٩٦، ١٩٧، سنا البرق الشامي/ ٢٩٧.

(٢) انظر: الفتح القدسي/ ٨٤، ١٣٥، ١٩٧، ٥١٩، سنا البرق الشامي/ ٢٩٦، ٢٩٧.

(٣) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٦ ـ ٤٠٨، كتاب الروضتين ٢/٨٤ ـ ٨٥، شفاء القلوب/ ١٢٦ ـ ١٢٨.

(٤) ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٣٥، كتاب الروضتين ٢/٨٣.

(٥) انظر: الفتح القدسي/ ٩٣، ١٣٥، ١٣٦، سنا البرق الشامي/ ٣٠١.

ويصور الأدب العربي حصونهم، وقلاعهم، وأبراجهم التي احتلوها أو أقاموها. ولكن صورتها لا تبدو جلية في الشعر الذي قيل حول تحرير البيت المقدس، ولكنها تبدو جلية في النثر، ففي الشعر نجد عدداً من الشعراء يشيرون إلى الحصون والقلاع من خلال قصائد المديح التي قالوها في أبطال الحروب الصليبية من المسلمين من امثال نورالدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وغيرهما، مهنئين بالانتصارات في المعارك التي أدت إلى فتح حصون وقلاع عديدة، ومن ذلك أن ابن القيسراني أنشأ قصيدة يمدح فيها نور الدين زنكي، في سنة ٥٤٥ هـ، ويحث فيها على تحرير بيت المقدس.

وفي هذه القصيدة، ورد ذكر عدد من المواضع من حصون وأبراج[١]، وجاء فيها أن نورالدين كان «إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصرةٍ تتجدد للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء»[٢]. ولم يذكر ابن القيسراني شيئاً عن تلك الحصون والقلاع والأبراج، ولم يذكر فيها أنطاكية، وعزاز، وهذا يؤيد ما تقدمت الاشارة إليه، فالحديث عن الحصون والقلاع والأبراج لا يبدو جلياً في الشعر العربي الذي قيل في موضوع الدراسة هذه. ومن ذلك أيضاً أن ابن القيسراني قال قصيدة يمدح فيها نور الدين زنكي، ويهنئه بفتح حصن (إنّب) في سنة ٥٤٤ هـ، ويحث فيها على تحرير بيت المقدس. ويكتفي الشاعر بالاشارة إلى يوم إنّب، وإلى أن فتوحات نورالدين وانتصاراته عمت معاقل عديدة[٤]. وذكر أنه في سنة ٥٧٥ هـ، فتح السلطان صلاح الدين الايوبي حصن بيت الأحزان. ويمدح ابن الساعاتي صلاح الدين عندما خرب الحصن، ويركز على الإشادة ببطله، ويهنئه بالنصر.

---

(١) انظر: خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/١٥٨، وانظر: ١/١٥٧ ـ ١٥٩، الروضتين ١/٧٢، التاريخ الباهر/ ١٠٣.

(٢) كتاب الروضتين ١/٧٢.

(٣) انظر: الروضتين ١/٥٩، وانظر مثل ذلك في: خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/١٠٨ ـ ١١٠، الروضتين ١/٨٦ ـ ٨٧، شعر ابن منير/ ٩٨، ديوان ابن منير/ ٢٤٥.

وكل ما نجده في القصيدة يتمثل في الحديث عن وقوف صلاح الدين على حصن المخاضة، وانتصاره هناك، وتخريب الحصن[1]. ويشير فتيان الشاغوري إلى ملك حصون أنطاكية، وحصن برزيه، وأثر ذلك على الصليبيين، كما يبدو في قصيدته القدسية، يقول[2]:

لمـا مَلَكـتَ حصـونَ أنـطاكـية ... يئس الصَّليبُ وحـزنُـهُ من مُظهِـرِ
بَرَزَتْ إلـى بُرزيه عزمتـك التـي ... مدَّتْ يداً عن مطلب لم يَقـصُـرِ
فَتَـنـاولـتـه بأيدهـا من باذخٍ ... في الأفـق ذي مثـل يروع مُسـيِّرِ

★★★

وأما في النثر الفني، فتبدو الصورة جلية، كما نجد في كتابات القاضي الفاضل، أو العماد الأصفهاني، أو ابن الأثير، أو غيرها من الكتابات الأخرى.

يتحدث العماد الأصفهاني عن حصن (بيت الأحزان) مثلاً، وهو حصن من حصـون الداوية، في حوادث سنة ٥٧٥ هـ، وهو ما ورد ذكره في الشعر كما تقـدم، ويحـدد العمـاد موقعـه، فيقـول: «والحصن مبني دونهـا، أي المخاضة من الغرب»، ويبين أن السلطان صلاح الدين خيم بالقرب من المخاضة». ثم يشير إلى أن صلاح الدين، توجه إلى قلعة صفد، وهي قلعة للفرسان الداوية، وقد «أمـر بقـطع كرومهـا، وحمـل أخشـابها»، ثم عاد، وزحفوا إلى حصن بيت الاحزان. ويبين أن وقت الزحف كان بعد العصر، كما يبين أن السلطان وزع جوانب البرج عليه وعلى أمرائه لنقبها، ويصور البرج بأنه «كان محكم البناء، فصعب نقبه» حتى يوم الأحد، إذ تم نقبه في ذلك اليوم وكان النقب ثلاثين ذراعاً طولاً، وثلاث أذرع عرضاً، وكان عرض السور تسع أذرع، وحشي بالحطب ليلة الاثنين، وحُرق»، ولكن دون جدوى، ولم يتأثر البرج، فأطفئت النيران، ليتسع النقب. ويصف العمـاد كيف أُطفئت النيران، وكيف وُسّـع النقب، فيقـول: «فرأيت الناس للقرب حاملين، ولأوعية الماء ناقلين، حتى أغرقوا تِلك الثقوب، فخمدت، فعاد نقابوها، فقد بردت، فخرقوه، وعمقوه، وفتحوه، وفتقوه، وشقوا

(١) كتاب الروضتين ٢/١٢.

(٢) ديوان فتيان الشاغوري/ ١٤٧، ١٤٨.

حجره، وفلقوه، ثم حشوه، وعلقوه، واستظهروا فيه يوم الثلاثاء والأربعاء، ثم أحرقوه». وانقض جداره في يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول، فكان انتصار المسلمين[1]. ويبين تفصيلات كثيرة، حول الحصن نفسه، وحول المعركة وسيرها، وتاريخها، وتحديد أيامها، وغنائمها، وأسراها، ويفصل كيف تم تخريب الحصن، والمدة التي استغرقها تخريبه، وهي تفصيلات لا نجدها في الشعر، بل لا نتوقع أن نجد مثل ذلك، فالشعر لا يتحمل التفصيلات التي يمكن أن يتحملها النثر الأدبي، كما هو واضح في حديث العماد الأصفهاني النثري من ناحية، وشعر ابن الساعاتي كما تقدم، من ناحية أخرى.

ويصف القاضي الفاضل هذا الحصن نفسه، في رسالة كتبها إلى بغداد، ويصور عرض حائط الحصن، وحجارته العظيمة التي يزيد عددها على عشرين ألف حجر، ويحدد تكلفة الحجر الواحد منها، ويبين انواع الحجارة التي حشيت بين الحائطين، يقول: «ووضعت له عظام الحجارة، كل فص منها، من سبع أذرع إلى ما فوقها وما دونها، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر لا يستقر الحجر في مكانه، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها أنوف الجبال الشم، وقد جعلت سفينه بالكلس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجة بمثل جسمه وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه، وأوعز إلى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه»[1]. ثم يصف النار التي اشتعلت فيه، فاقتلعت حجارته، ومحيت رسومه، كما يبدو في قوله: «والنار به مُطيفة، وعليه مشتملة وعذبات ألسنتها على تاجه مسدلة، ومن خلفه مسبلة، ونارهم قد أطفأها الله بنار تلك الواقدة، ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة...، ونفحاتها حميمية وقودها الناس والحجارة...، فولجت النار من موالج يضيق منها الفكر...، وقذفت بشرر كالجمالات الصفر»، إلى أن يقول: «تقدم الخادم صلاح الدين فاقتلع بيده الأحجار من أسسها، ومحا حروف النيران من طرسها»[2].

(١) انظر: الروضتين ٢/٨، ١١، مضمار الحقائق/ ٢٦ ـ ٢٩، سنا البرق الشامي/ ٣٢٢، البداية والنهاية ١٢/٣٠٠، ٣٠٣.

(٢) انظر: الروضتين ٢/١٣، البداية والنهاية ١٢/٣٠٤.

ويصفه في رسالة أخرى، ويبين أنه كان فيه «نحو الف زردية، وكان المقاتلة فيه ثمانين فارساً بغلمانهم، وخمسة عشر مقدما للرجال، مع كل مقدم خمسون رجلاً، وكان فيه أصحاب صناعة كالبناء، والمعمار، والحداد، والنجار، والصيقل، والسيوفي، وصانع أنواع الاسلحة. وكان فيه أكثر من مائة أسير من المسلمين، كما كانت فيه أقوات ولحوم تكفي لسنين عديدة. ويصف الكاتب المعركة في أول أيامها، وكيف تمت عملية النقب، وحشيت الثقوب بالأحطاب والنيران إلى أن وقعت الواقعة، وانشقت الأبرجة فهي يومئذ واهية». ثم يصف اشتعال النيران في أرجاء الحصن، واحتراق مقدم الحصون، وكيف أصبح الحصن أثراً بعد عين[1]. ومن الواضح أيضاً أن القاضي الفاضل يفصل في وصف الحصن وبنائه، واحتراقه وتخريبه، وأثر ذلك في النفوس، وتحديد عدد مقاتليه، والصناع فيه، وغيرهم، كما تقدم.

ومن الحصون التي تقدمت الإشارة إليها في الشعر حصن «بُرْزيه»، وهو الحصن الذي أشار اليه فتيان الشاغوري، واكتفى بالاشارة إليه فحسب، ولكننا نجد في النثر تفصيلات في الحديث عنه، حيث نجد وصفاً تفصيلياً له، في كتابات القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني. كتب القاضي الفاضل كتاباً إلى السلطان، يبشر بفتح هذا الحصن، ويصفه بأنه «هو الذي تضرب به الأمثال، وتضرب عنه الآمال، ويكاد يحزن إذا قادت أيدي السلاسل أزمة الجبال»، وقد كان للكفر درعاً حقيقياً طالما كانت تهزأ بالنصال[2].

ويفصل العماد الأصفهاني في وصف هذا الحصن، فيتحدث عن موقعه، وعما يلحق بالمسلمين من الجور، ثم يتحدث عن توجه صلاح الدين إليه، ونصب المنجنيقات عليه، وقد فرق عسكره ثلاث فرق تتناوب على قتال أهله، إلى أن تسلمه المسلمون «ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة»[3]. ويفصل الكاتب في حديثه عن فتح هذا الحصن في كتابه الفتح

(١) كتاب الروضتين ٢/١٣.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١٣١، ١٣٢، وفيات الأعيان ٧/١٩١، ١٩٢.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٣١.

القدسي. ويصف الحصن بأسلوبه الادبي المنمق بأنه «أحصن القلاع وأفرعها، وأحسن الثلاع وأرفعها، وأسمى الرواسي وأسماها، وأسنم الرواسخ وأسناها». ويصوره بأنه «قلعة شماء في الذرى لا تكاد من سموها ترى، وهي على سن من الجبل عال مترامية في السماء ارتفاعاً». ويصف المنجنيقات المنصوبة، ويبين أنها لم تتمكن من الوصول إلى أعلى مواضع في القلعة، ولذا مال السلطان إلى الزحف، وتقسيم عسكره إلى فرق ثلاث[1]. ويتحدث الكاتب عن صاحبة هذا الحصن، وهي زوجة الابرنس صاحب أنطاكية، ولم يكتف العماد الاصفهاني بكتابه هذا، فقد أنشأ كتاباً من كتب البشائر العمادية، يبشر فيه بفتح هذا الحصن، يصفه بأنه «لا يمكن وصف ما هو عليه من الحصانة»[2].

ويصور القاضي الفاضل حصن الكرك في العديد من الرسائل، ويتحدث عن حصاره فيقول: «وأما الكرك فكفات المنجنيقات عليه متظافرة، وحجارتها على من فيه حاجرة، وقد جدعت أنوف الأبرجة، وكل جوانبها وعرة المرتقى». ويصفه في كتاب آخر مستلهما القرآن الكريم، فيصور عذاب الله واقعا بالحصن، وأهله، «ماله من دافع، وأن دليل النصر قد ظهر وما دونه مانع، وأما المنجنيقات، فقد نكأت في الأبراج بالهدم، وفي الأعلاج بالهتك»[3].

ويصف العماد الأصفهاني حصن كوكب، ارتفاعاً، وحصانة، وهو حصن للفرسان الاستبارية يقول: «وجئنا إلى كوكب، فوجدناها في مناط الكوكب كأنها وكر العنقاء، ومنزل للعواء، قد نزلتها كلاب عادية، ونزعت بها ذئاب غادية». ويصف القتال ومحاصرة الحصن، وكان الفصل شتاء، كما يصف ما أبداه الفرنج من ضروب الشجاعة. إلى أن تسلم المسلمون الحصن

---

(١) انظر: الفتح القدسي/ ٢٤٨ - ٢٤٩، ٢٥٠ - ٢٥٤، الروضتين ٢/١٣١.

(٢) انظر: الروضتين ٢/٥٥، ٥٦.

(٣) انظر: الفتح القدسي/ ٢٧٣، ٢٧٤، سنا البرق الشامي/ ٣٢٢، الروضتين ٢/١٢٠، ١٣٤، ١٣٦، صبح الأعشى ٤/١٥٥.

بالأمان[1]. ويصفه العماد في كتاب الفتح القدسي باسلوب مصنوع منمق، مستلهما التراث الشعري، فيصوره بأنه «حصن لا يرام، وركن لا يضام، ومعقل لا يسامى ولا يسام، وذروة لا تفرع، ومروة لا تقرع، وعقيلة لا تفترع، وبكر لا تخطب، وقلعة لا تطلب[2].

ويصف القاضي الفاضل هذا الحصن في كتاب كتبه بلسان السلطان صلاح الدين إلى سيف الإسلام باليمن، بأنه «كرسي الاسبتارية، ودار كفرهم، ومستقر صاحب أمرهم، وموضع سلاحهم وذخرهم». ويتحدث عن موقعها الاستراتيجي، ووقت النزول عليها. ويصور النصر وأثره على الإسلام والمسلمين، ويصف الشتاء، وهو الفصل الذي فتحت فيه كوكب، كما يصف العدو الصليبي[3].

ويصف العماد قلعة الفولة بفلسطين، فيذكر أنها أحسن قلعة وأحصنها، وهي حصن حصين من حصون الداوية، «ومكان مكين، وركن ركين، ولهم بها منبع منيع . . . ، وفيها مشتاهم ومصيفهم، ومربط خيولهم، ومجر ذيولهم، ومجرى سيولهم، ومجمع إخوانهم، ومشرع شيطانهم».

وكان الداوية فيها قد «هاجوا إلى الهيجاء، وطروا في القتلى والأسراء، فنعب الغراب على طول الفولة بدماء أهلها المطلولة، فهي غاب غابت أسودها الحماة، وغيل غالت ليوثه عداتها العداة»[4].

وكان الصليبيون قد أنشأوا العديد من الحصون، والقلاع، والأبراج لحماية انفسهم ومملكتهم في بيت المقدس، وأشير هنا إلى ما كانوا قد أنشأوه في

---

(١) انظر: الفتح القدسي/٢٧٣، ٢٧٤، سنا البرق الشامي/٣٢٢، الروضتين ٢/١٢٠، ١٣٤، ١٣٦، صبح الأعشى ٤/١٥٥.

(٢) انظر: الفتح القدسي/ ١٧٧، ٢٠٤.

(٣) انظر: الروضتين ٢/١٣٦، ١٣٧، صبح الأعشى ٧/٢٣ - ٢٧، ٣٤١ - ٣٤٤.

(٤) سنا البرق الشامي/ ٣٠٢.

مملكة بيت المقدس كما كانوا يسمونها، فقد انشأوا ابراجاً ثلاثة ضخمة، وهم يحاصرون بيت المقدس، وهي برج صهيون، وبرج آخر بباب العمود، وثالث عند الطرف الشمالي الغربي من الأسوار[1].

ثم أنشـأوا قلاعاً في كل من الشوبك ومعان، وبذلك أضحى ملك بيت المقدس الصليبي يتحكم في الطرق بين دمشق والحجاز ومصر، وأقاموا قلاعاً وحصوناً ضخمة في مملكة بيت المقدس الصليبية[2].

(١) انظر: تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٣٤، ٦٢٤، ٦٢٥، بلادنا فلسطين ـ بيت المقدس ١٦٤، ١٦٥.

(٢) انظر: بلادنا فلسطين: بيت المقدس ١/١٧١، ١٨٠، ١٨٦، الديار اليافية ٢/٥٩١، في ديار الجليل ١/٧٨، ٥١٩.